Leprosy Colony

قصص

ابن رشد للنشر والتوزيع

فتحي إمبابي

مستعمرة الجُذَام

AVERROES
ابن رشد

فتحي إمباي

مستعمرة الجُذَامُ

مجموعة قصصية

الرجال الطبيعيون

كنا نخوض في لجة من ظلام، أستمع لدبيب الجموع الصاخبة وأتحسسه، فتتملكني مشاعر الدهشة، إذ أنه لم يخطر ببالي أني سأشاهد حالة من حالات الهبوط الجماعي كتلك، وخاصة أني أمضيت سنوات مراهقتي أقرأ تلك الروايات التي كانت شاهدا على انتصار الانسانية عبر تاريخها، فهل كان كل ذلك محض هراء... من يعلم؟

هذا الذي ما كان لعقلي قد يؤمن قط بحدوثه، فما البال حين أكون أحد الهابطين، أمسك بأطفالي والهم يقتلني، يمسك بعقلي الذي سار كمصراع باب قديم متهالك، عاجز عن تحاشى الهبوط بهم، والبقايا الباقية من أشعة الشمس تتوارى وتغيب ليحل الظلام... شلالات الضوء التي كانت تنهمر قديما باتساع

السماء أخذت في التلاشي منذ زمن بعيد، لم يعد يتبق منها سوى بقع مراوغة تبزغ هنا وهناك....

كنت أشعر بهبوطنا أحيانا يبدوا بطيئا، لحظتها يحدوني الأمل بأن زمن الصعود قادم، لكن الضوء على مشارف المنعرجات القريبة التي تلوح في الأفق لم يكن سوى وميض سراب، وعندها يعود لهبوطنا سرعته، وأستشعر القوة القاهرة الدافعة لهذا السقوط... رغبة الجموع التي لا راد لها في الإمساك والتشبث به، يصيبني الإحباط واليأس، تهاجمني مشاعر الاختناق بقسوة، وأعود ألهث وأنا أفتش في صراع ضاري مع الأخرين عن قطع العظام التي لفظها السادة من الرجال الطبيعيين، تاركين بها عن دون قصد قليل من أكسجين التنفس...

صرت أعلم أن الرجال الطبيعيين لا يسكنون القاع وإنما مكانهم دوما كان هناك على السطح، حيث يغمرهم ضوء الشمس ويتنفسون الهواء النقي، وكنت أظن أن هذا سيصير يوما ما مكان لي ولأطفالنا وللجموع، إذ أني كنت أظن نفسي الطبيعي بلا منازع، لكن الأيام والسنوات تترى ولا نواجه سوى المزيد من الشقاء، مزيد من التعب والتعاسة، حتى صرت أبغى الموت وأتمناه...

لعنة الله على أولئك الذين ملئوا عقولنا بالآلهة الأبطال، وصراع الطبقات، والأخلاق المستقيمة، وتلك الأساطير المسماة بالوطن والشعب والطبقات الكادحة... الآن يتخبط الجميع طلبا في الصعود؟ الآن لا التقى سوى بالنوع الجديد من الرجال الصاعدين، ونحن لا نزال نتمسك بما يثقلنا عن

الصعود لضوء شمس جديدة... إذ قيل لنا أن الشمس التي أمدتنا بالضوء لم تكن سوى شمس كاذبة....

كيف يمكن؟

منذ أن بدأ هذا السؤال يطرق عقلي، وأنا أحث الجميع على التكيف مع الشمس الجديدة، الوحيد الذي كان متمسكا بشمس الزيف هو أنا، ربما عن عجز، ربما أن هناك مثلى أخرين لا أعرفهم، وإذا ما التقيت بأحدهم فسرعان ما تشده عنى بعيدا قوة جذب قاهرة...

كنا نخوض في لجنة الظلام، تتصادم وتتخبط أجساد بعضنا البعض في وسط من هواء عطن، آلام الاحتكاك، ضربات القبضات الطائشة، الأحذية الثقيلة تغوص في أجسادنا وفوق رؤوسنا، لأشخاص تجاهد للصعود من أجل الحصول على قدر من الهواء النظيف، وبين الفنية والفنية تعبرنا صاعدة لأعلى إحدى الكتل الفولاذية الضخمة من الرجال الطبيعيين... عنيفة مدمرة مخلفة ورائها الصراخ والعويل، مئات من الجثث، أنهار من اللحم... نافورات من الدم السخين، كانوا يعبروننا مثل قطارات تندفع في طريقها لا تلوى عنها شيء... وعندما تغيب في الأفق تنهض الجموع ثانية، ولا تلبث أن تعود للدبيب المعتاد، وقد خلا من قلوبها ما يوحى بوجد أو مشاعر...

فيما بعد سمعت عن نوع من رجال طبيعيين، كانوا دائما على أهبة الاستعداد للقفز إلى نوافذ القطارات وسطوحها، حينما يمر أحدها ويرحلوا معها، وكنت أظن أن السفر خارج مدينة التي حل بها الظلام جريمة... ولأنى كنت أظن أنى رجلاً طبيعياً لم أفعل، والآن كم أشعر بالندم على تلك القطارات

الصاعدة، والتي اكتفيت بالنظر إليها مرة بترفع ومرات بالاستحالة، وأخيرا بالعجز...

... عندما خلفنا هجوم القطارات المصفحة وراءنا، صرنا نهبط إلى الأعماق بلا توقف، وكنا نظن إن للأعماق نهاية، تختلط أرتال العرق الساخن بالدم الفاسد وضيق التنفس، وقد صار الوسط لزج مخاطي القوام، والرائحة النفاذة تستنفذ بقايا الأكسجين... صرخت أنشد المساعدة، لم يجيبني سوى تلك الأصوات الصاخبة المجدولة بالألم لأولئك الرجال الطبيعيون الذين يحلمون بالصعود، وأولئك الذين جبلوا على العيش في القيعان المظلمة...

... المعايير القديمة تهاوت، وكنت أظن أن سقوطي سببه تمسكي بتلك الترهات الوهمية، الآن أعرف أنه عجزي عن القدرة على التكيف... هل كانت الأسماك لتعيش، بعد أن جفت البحار ولم يبقى لها سوى المستنقعات وسطا وحيدا للحياة... لو تمسكت بطبيعتها المائية ما صعدت البرية وشكلت الطريق لنا نحن البشر...

وماذا كان مصير الزواحف عندما تراجعت الغابات وتصحرت المراعي، لو لم تحول قدميها الأماميين لتصبحا أجنحة تحملها إلى سماء بلا حدود، أو ترفعهما لتتسلق الأشجار لتعلن بزوغ مملكة الحيوان، هل كان يمكن للإنسان أن يوجد لو أن تلك القردة الأوائل لم تغادر المراعي القديمة وتصعد إلى أغصان الشجر...

الفضل في وجودنا يرجع للتكيف الذي يمكننا من التحول إلى كائنات من نوع جديد، وأنا عاجز عن التحول، لازلت

متمسكاً بالماضي المنكسر، تتملكني تلك القيم الغيرية اللعينة، مصاب بحب البشر، فحق على الموت البطيء...

... الرجال الطبيعيين هم القادرون على أن ينشدون النجاة من المستنقعات على جثث الضعفاء حين تغرق السفن...

الرجال الطبيعيين هم الذين يستطيعون أن ينشدون الحياة حتى ولو كان الفساد طريقهم...

أما أولئك الذين يقضون حياتهم في سبيل الغير فهم المنكوبون بالبلاء، الْمُبْاعَونَ في أسواق الوهم والنخاسة... المنسحبون من حلبات الصراع كي يقل أعداد الناجون في حلبة الحياة لتعظيم الفائدة... فلماذا ابق علىّ في دار الموت هذه... لست اعرف بعد؟

... لست اعرف بعد متى وعلى وجهه التحديد اللحظة التي شعرت فيها بتغير حاد في بشرة الأطفال، رغبة عنيفة في الحك، آلام مفزعة في أسنانهم... متى لمحت أول مره ذلك الذيل الرمادي المدبب الكرية لجرذان المجاري والمستنقعات؟ لا أذكر...

... الأشرعة التي تسافر عبر البحار العديدة، الرياح المشبعة بالعواصف... زخات المطر الثقيلة... الجزر البكر... قطرات الندى على وريقات الورود... أجساد النساء الشابة ... انهار الكوثر... بسط العشب... الأفق الشفقي... قوس قزح... أشياء تبدو مثل جنة تسكن في اللا شعور... تنتظر ظهورها التخيلي بقدوم الأنبياء الذين سيبيعونها لنا فيما بعد... الحاملات الصاروخية عابرة الأفلاك التي تتنزه عبر السموات السبعة، بخفة وضعة هي ملك للرجال الطبيعيون منذ الآن، نحن لنا

طريق واحد، هو الهبوط قاع (تقدس أسمه... تقدس وضعه) لا يأت ....

... يُهئ لي أني أعرف الطريقة التي عرف بها الإنسان الجنة، أنها باستمرار الماضي القديم القابع في اللا شعور... الماضي الذي عاش فيه التعساء يوماً ما على سطح سمي فيما بعد بالسموات قبل الهبوط إلى القيعان...

... في الفضاء المظلم لمحتها، تلك البقع الضوئية الطائرة تحلق في الفراغ الرمادي كفراشات النار الملونة، طاردتها وشرعت أدعوا من جديد للمقاومة، للنضال من أجل الجموع، أمد يدي من جديد للذين ظننتهم من الحرس القديم... الرجال الوهميون... أوزوريس... سبارتكوس... الأب أثناسيوس صاحب قانون الإيمان المستقيم... على بن أبي طالب المكرم وجهه... سيد الشهداء الحسين رضي الله عنه... متاريس باريس... لوركا... أرنستو تشي ـ جيفارا... هوشى منه... عشرات الشهداء الذين قتلتهم رصاصات الغدر في ساحات التحرير وميادين مصر...

... يالعقل المريض... محض أوهام... ترهات... لم يكن ثمة شيء في الفضاء سوى خيال فكر أصابه الوهن، الوجود الحقيقي ملك الرجال الطبيعيين... لم يكن قط لأحد سواهم فكُل بَنانٌ الندم المُخَضَّبٌ بالخديعة والنكران يا عَليّ رحمك الله...

... الرجال الطبيعيون هم الفراعنة والأكاسرة وأباطرة الرومان والسادة اللوردات وكل قادة الإمبراطوريات الفاتحة، العسكريون الفاشيون الصغار... تجار المخدرات... الهيرويين،

الأغذيــة الفاســدة... الراقصــون في معابــد الفســاد... الملونــون القــابعون خلــف كــراديس الفكــر الملــوث يعرضــون ألــوانهم في أســواق النخاســة، يبيعــون مســارتنا ومصــائرنا لأشــباههم وأزلامهــم، وكــل مــن يهــرب مــن الســفن الغارقــة... الرجــال الوهميــون محــض مفصــل يتناقــل عــبره الرجــال الطبيعيــين الســلطة... محــض هــراء هذا العقل الإنساني السقيم....

... أشــعر في أســناني بــآلام لا تطــاق، وأمــامي كــان الصــغار ومعهــم الجمــوع يتلــون مــن الألــم، تكــبر أســنانهم وتضــغط عــلى عظــام الوجــه، تنصــاع مقدمــة الفــك وتتفكــك، ينثــال الــدم الأســود المخــثر عــلى الوجــه، تســتطيل الأفــواه، تتصــاعد الصرخات في فــزع، ينتشر العــواء، ثمــة عــلاج قهــري وحيــد للــتخلص منــه، عنــدها شرع الجميــع في قــرض الوجــود الخــارجي، قــرض بــلا مغــزى، قــرض بــلا هــدف، وإنمــا وتــيرة متواصــلة حــتى ولــو كــان عليــك أن تقــرض مــن تحب.

... لــم يكــن هــروب الجــرذان أمــام القطــط عــن خــوف إذا، وإنمــا كــان هنــاك ذاك الجــلاد الملعــون المســمى بتضــخم الأســنان وآلام اللثة...

لــيس ثمــة وجــود خــارج قــرض الوجــود المحــيط، منــذ تلــك المعرفيــة القاســية (والــتي علمــت بهــا بصــورة متــأخرة)، لــم يكــن هنــاك ثمــة مــا يُفعــل ســوى أن تكــب عــلى قــرض كــل مــا يحــيط بــك... كــذا كــان الأهــل والأقربــون مســتعدون أن يقتــاتون عــلى لحمــك ويتجرعــون مــن دمــك... كــذا كــان الأصــدقاء... كــذا كــان الأحبــة... كــذا كانــت نســاء تــدعى العشــق والمــودة... كــذا كــان رجــال يزعمون الشرف والكبرياء...

... الفـزع والخـوف، التوقـف عـلى القـرض محـض تـرف، الشـجاعة تـرف، والشرـف محـض خيـال، الآخـر وهـم، والـذات محـض عمليـة متواصـلة، تتحقـق في هـذا الشيـء الملعـون الـذي يدعي بقرض المحيط الخارجي...

الآن كانـت الجمـوع قـد صـارت مجبولـة عـلى القـرض، لا شيء خارجـه سـوى ثنائيـة الفـزع والخـوف مـن التوقـف عـن القـرض... جـرذان صرنـا نحـن... طبيعيـون صـاروا هـم... فلمـن كـان النصر في لعبـة الاخـلاق والقـيم... وأي شرف ذاك الـذي يتـبقى لـك عنـدما تنتمي لجنس القوارض...

* * * *

... كنـا نهـبط في لجنـة مـن الظـلام الكثيـف، تحكمنـا قدريـة القـرض لـيس ثمـة عقـل، لـيس ثمـة ضـمير، زخـم العواطـف القـديم أحـلام خيـال مـريض، الشرـف... الشـجاعة... قـوة الإرادة... جمـال اليقين ....

وبـين الحـين والحـين كانـت تلـك المفـارز الفولاذيـة للرجـال الطبيعيـين تخترقنـا صـاعدة لأعـلى.. عنيفـة مـدمرة مخلفـة ورائهـا الصرـاخ والعويـل، ألاف الجثـث، أنهـار مـن اللحـم، نفـورات مـن الـدم السـخين، قطـار ينـدفع في طريقـه لا يلـوى عنـه شـيئا، وعنـدما تغيـب في الأفـق تـنهض الجمـوع ثانيـة عشـائر مـن الجـرذان، جحافـل مـن الهـوام، لا تلبـث أن تعـود للـدبيب المعتـاد للقوارض...

... كنـت قـد صرت جـرذا عجـوزا، ممـدد الجثمـان، منـتفخ الـبطن، تسـاقطت أسـنانه، رقـدت مستسـلما أبـغى سـلام المـوت، أشـعر بأسـنانهم تقرضـنى... ويـلى... أخـيرا أمـوت مغمومـا...

يقهـــرني أن الرجـــال الطبيعيـــين ســـينفذون بجـــرائمهم، لـــيس فقـــط... يقهـــرني أن القـــاطنين تحـــت الشـــمس سيشـــنون حربـــا لا هـــوادة فيهـــا عـــلى الســـاكنين في قيعـــان الكهـــوف والشـــقوق مســـتخدمين كـــل أنـــواع المصـــائد والهـــراوات الدمويـــة والقنابـــل والمبيـــدات الحشـــرية الســـامة، وكافـــة أنـــواع الأمصـــال الـــتي تولـــد العقـــم، ولـــو كنـــت مـــنهم لفعلـــت... خنـــت أطفـــالي فصـــار مصـــيرهم مصـــير مـــؤلم، بينمـــا أطفـــالهم يرتقـــون لمســـتوى البشـــر، يجـــب أن لا ننـــولهم بغيـــتهم، لـــيس أمـــامي ســـوى طـــريقين، إمـــا أن أنقـــل إلـــيهم حكمـــتي الزائفـــة عمـــا يجـــب فعلـــه إزاء الرجـــال الطبيعيـــون، أو أن أربـــو بهـــم عـــن هـــذا المصـــير القـــاتم... كيـــف...؟ ... القتـــل... !!... وهل هناك بديل...؟

... عـــلى وجـــه مـــا كانـــت خـــبراتي قليلـــة، عنـــدما شرعـــت في تنفيـــذ أحدها، كان ثمة شيء ما قد شرع في التهامي... ماذا أفعل...؟

كان على أن أشرع في المقاومة...

* * * *

عزيزي تيمور
أيها المنتشر العظيم

فاجـأني موتـه فهتفـت: لقـد انتشر تيمـور الملـوانى هـو الأخـر... ولـم أكـن أعـرف أنـه مـن المنتشريـن... حـدقت شـطر السـماء اتـابع سـطوع النجـوم والمجـرات عـبر الكـون... توزيعهـا الغـير منـتظم عـلى صـفحة السـماء... كـان التشـوه سـيماء الوجـود... الكثافـة تتـابع بجـوار المنـاطق الباهتـة لحقـول النجـوم، وتلـك الـتى خبـت وماتـت منـذ ملايـن السـنين لا تـزال ترسـل أضـواءها عـبر المجـرات لهدايـة السـائرين في الليـل والعابرين بحر الظلمة...

مات تيمور ليترك في الكون فراغا ولتستمر عمليات التوزيع الغير متكافئ تعمل عملها بجبروت صارم وقوة تستقى عنفوانها من قوانين الطبيعة الجبرية، لم يشفع له أنه تمثل أمام نظام معقد من تناظرات في سلاسلها اللامتناهية، ولا أن تلك الإلكترونيات الدقيقة في حركتها النشطة حول البروتونات تصنع اتزانها الحيوي الذي تقيم عليه الحياة حركتها الدائبة نحو الظلام اللانهائى...

مات تيمور حيث لا تزال رائحة جرادل البول العطن تملأ فضاء الزنازين، ولما فاضت بها حلت في الترع والجسور جثث لحيوانات

نافقة ونفايات بشرية، وعلى امتداد حقول القمح تهاجم المبيدات الحشرية السامة وجالونات السموم المخلطة ربيع الدلتا ونهره الخالد بلا توقف...

مات تيمور ورحل عبر المجرات بعد أن اختار الانشطار ورفض التمركز حول الأنا الذاتي للفارين من السفن المُوشِكَة على الغرق، ولا الأنا الجمعي لجماعات من محترفي الانقضاض على الثورات من الداخل، ومهرجي منصات اليسار الرسمي، وخبراء فض الكفاح السياسي، والمثقفون العاطلون الذين يسكنون جلد الوطن، المتمكنون ببراعة من السيطرة على العقل واللغة... مات تيمور الملواني وانتشر متتبعا هدى وخطوات أمال عبد الهادي في هروبها يوم أن هجم الحرس...

ما الذي نعرفه وما الذي لا نعرفه... ما الذي يجب أن نختاره وما الذي لا يجب... أن نستجيب لغريزة حب البقاء ونتسلح بقوانين حروب الغابة البدائية، أو تكون الحالم الخاسر المهزوم... أن تكون الطبيعي بلا منازع... أو أن تنتشر نحو شقي الرحى... التفسخ الذاتي الممزوج بالدهشة، والخروج الى المجرات المعتمة حيث الظلمة والعقاب الكونى...

أفصح إذا. لماذا قابلتني قبل موتك الفاجع بثلاثة أشهر... محض صدفة أم اجترار زمن قديم... لماذا هاجمتني بصوتك وأنت تدلف إلى مقهى البستان بصحبة محمد هاشم... أنظر نحوك محدقا بعينين كليلتين أكلهما مرض السكر، وعنف نساء موتورات بين هستيريا حافة الهاوية وبين الهوس بذواتهن المثيرة للشفقة،

هل هو؟ ... بالطبع هو، أصيح من الفرح: تيمور عد إلينا ولا تنتشر... فهل أصغت لي السمع....

كيف وقد اندفع كلا منا تجاه الأخر معانقا... حسنا أعنى بإجابتك عن الطبيعي والغير طبيعي، أن تتبع أمال عبد الهادي وتنتشر طبقا للاتفاق المعقود بين سجينات سجن القناطر للنساء في الليلة التي سبقت هجوم الحرس، أم أن تتحرك طبقا لغريزتك وتتجه بشهوة الانتقام، وقوايش وأحذية السجانين الذين استدعوا من سجن الرجال لتأديب الورود التي نبتت في فضاء وطنا احتلت أراضيه... أن تلتزم باتفاقيات الأنا المصنوع في دائرة الوعي، أو تهرب باتجاه الهو الغريزي المجبول على آليات القدرة على البقاء.

لقد ضَنَيتُ على بإجابة، وفضلت الموت والانتشار بحثا عن التوازن الإنساني في الكون راحلا في اتجاه المجرات... على حين لا يزال المهرجون والهاربون المُجدِّفين في مسالك الطبيعي يغتصبون كافة منصات الانطلاق نحو المستقبل، لا يتورعون عن إخراج ألسنتهم وهم يتغنون بنجاتهم من زمن الحشر الذي بدأ مبكرا على عكس ما قيل، ملوحون بإصبعهم الأوسط وبصاقهم المسلول بالخراب... متبجحين بصلف وشماتة المنتصرين....

* * * *

أيها المنتشر العظيم....

ماذا كنا ونحن داخل عنابر وزنازين سجون السبعينات، تتفجر في صدورنا طاقات وأحلام خلاقة... لا نرى في غلق أبواب الزنزانات

في السادسة مساء سوى البراح الوسيع وسطوع قمر الحكايات وأساطير النضال... لا نرى داخل الزنازين المظلمة وكواتها سوى شمس المستقبل... فماذا اصبحنا بعد أن غادرنا السجون... المخلصين والغير مخلصين... الموغلون في الأيدولوجيا والذين لا يطيقون سماعها... الملتحقون باليسار الرسمي الذي يتلقى أوامره من الحدائق الخلفية للنظام، أم التنويريون المزورون الذين كانوا يقودون الشعب بوقاحة المثقفين، ودناءة النخاسين إلى حظائر التوريث ومسالخ العبودية...

لا ... لا هذا ولا ذاك، كان هناك أصحاب الاختيارات الناجحة بدقة متناهية على كل الطرق والمنحنيات... وكان هناك المنتشرون...

أما أنت فقد كان كل شيء يوحى بعدم انتشارك... من كان يدري أن خلافاتنا ليست من النوع الذي كنا نظن؟

هل كنت تنوى حقا دخول الامتحانات... وكيف وقد نجحت في اختبارات الوطن... وكان عقابك بقرار من السيد الرئيس؛ التجنيد على أطراف جبال البحر الأحمر في سبيل الدفاع عنه... أو السجن في سبيل كبح الوجد وقمع العاشقين...

* * * *

مارس 1973 العام الدراسي يوشك على الانتهاء، وامتحانات أخر العام على الأبواب.

- هل ندخل الامتحانات؟

- هل نشرع في طلب لجان داخل السجن؟!!

الاجتماعات دخل الزنازين، في ساحات العنابر الداخلية والخارجية، النقاش كالعادة طويل... الرافضون يرون أن دخول الامتحانات خيانة تجمل وجه النظام!!... يا الهول... دخولنا الامتحانات يجمل وجه النظام... عبارة خلابة... بهرتنا كما بهرتنا عشرات العبارات الأخرى، ما هو السبب على وجه التحديد؟ الشعور بقوة الرفض، الإحساس بالقدرة على تدمير الذات ضد الأخر، تماما كالإضراب عن الطعام حتى الموت، رجال مباحث أمن الدولة البغيضين، السجون والمعتقلات... قال أحدهم:

- لندعو الطلاب ف الخارج بالامتناع عن دخول الامتحانات...

لقد أصاب الاقتراح الجميع بالشلل في الصميم وأطاح لوقت طويل بأي إمكانية للحديث عن دخول الامتحانات... وعندما جرؤ البعض بالقول إن لديه فرصة جيدة للنجاح... لهؤلاء قيل:

- على الأخص إذ نجح البعض منا!!

بالطبع لم تُعلق المشانق... لكن الشعور بالغضب من أولئك الذين يخدشون طهارة الحلم، يلوثون بذاتيتهم نصاعة الحلم...

ياالحماقتنا... لم نكن ندرك أن التَزبُيتْ([1]) سيكون شيطان الانتصار الكبير... وأن تكون ذاتيا، وقحا، ضيق الأفق، سيكون

[1]) التَزبِّيتْ: التعلق بالذات ونمو الأنا على حساب المثل والمبادئ

سبيل عبور الأنا الملوثة بتَزيُتها الخاص للنجاة إلى فردوس الدناءة، تاركة للقطيع حاضر أسود، ومستقبل أشد كآبة من بحر الظلام الأعظم وربما نهائيا..

... تيمور.... !!

أذكر يوم قال لي بعض الرفاق أن تيمور الملوانى سوف ينتقل ليقيم معك في الزنزانة (128)، في البداية لم أستوعب السبب، واعتراني والتوجس، ما الذي يدعوه للإقامة معي وانا الذى لم يكن من منظري الطبقات الكبرى، لم لا يذهب إلى حيث يقيم سيد القط أو أسامة خليل وماجد إدريس، أو حسام سعد الدين، ليخوض معهم معاركه التي لا تتوقف، لم لا يصاحب أصدقاءه من المناضلين المبشرون بالجنة، وعندما تساءلت: لم؟ قال جلال مقلد:

تيمور قرر دخول الامتحانات وسينتقل كي يذاكر معك...

كلانا كان ملتحقا بكلية الهندسة، كلانا كان في السنة الثالثة القسم المدنى، هو هندسة جامعة الإسكندرية وكنت هندسة جامعة عين شمس، اعتراني القلق، فقيادات ١٩٦٨ كانت تثير الهواجس، فضلا عن إنه كان شخصية انفعالية... قلت لنفسي... عزيزي تيمور الزنزانة أصغر من تتحملني وتتحمل نوبات هياجك...

مضى اليوم الأول ولم تأتى، شعرت بالراحة لعدم مجيئك، كان ثمة شعور بأنك لن تأخذ الأمر بجدية فقد احترفت النضال السياسي... والانتقال الى أحياء الفقراء ودورهم الفقيرة، والدفاع عن

الذين يخطون خطوات البراءة الأولى على طرقات الجامعة، وعشقت النضال الوطني ضد غشم جماعات اليمين وأمن الدولة...

في ظهيرة اليوم التالي جئتني وعلى وجهك علامات دعة لم أشهدها عليك من قبل، كانت علامات كتلك التي رسمتها على وجهك قبل ثلاثة شهور من فجيعة موتك، كنت هادئا وديعا تحيط بك السكينة، وعلي وجهك ارتسمت ابتسامة خجل وحياء الرجال، لا أعرف السبب، لكني حدثت نفسي قائلا... أرجوك تيمور أنت لست كذلك... لست وديعا، لست مسالما، لن تمحوا ابتسامتك هذه من ذهني توتري من قادة مظاهرات 1968 ولا شراستك في الحوار السياسي، عنفك واندفاعك، عدم تورعك عن التهام الأخرين بقاموس طويل من تلك الألفاظ التي نسيناها الأن منذ زمن طويل....

أذكرك تقف على باب الزنزانة وتنحني بابتسامة ودودة وتقدم لي كتاب مادة الإنشاءات للدكتور الديواني... هذا الكنز الذي نفتقده في كليتنا.

شرعنا في المذاكرة، بعدها انتقلت للإقامة معنا أنا وجلال مقلد وثالث وما لبث أن رحل إلى زنزانة محمد المخزنجي وحسام سعد الدين حيث اجتمعت ثلة من لاعبي البوكر....

* * * *

الوداعة هذا الوهم الذي جئتني به تلاشت، يوم حكم لك القاضي بالبراءة، واعترض رئيس الجمهورية بعد خمسة عشر يوما

من قرار الإفراج عنك، وكأنه اختار أن يكون الصياد وأنت الأسد المحبوس في زنازينه، يومها حضرت والدتك الفاضلة لزيارتك، خرجت للقائها وعدت غاضبا يتملكك هياج ممزوج بشجن وحزن ينساب أنهار من عينك، إذ كيف تتلقى أمك نباء الإبقاء عليك في السجن بشجاعة، مغدقة عليك من حنانها ما أثار لديك التعاسة، فلو انها غضبت، لو انها صبت عليك جام غضبها لارتحت، لكنك لم تكن لتأبه بنفسك، وأثار حفيظتك معاملتهم السيئة لها، وإبقائها بالخارج تحت شمس القيظ الحارة زمنا طويلا..

كنت اجلس جانبا أقراء إحدى الكتب لا اعرف ما يثير سخطك، أكتم ضحكتي، وأنت تدور في الزنزانة أسد يزمجر، يقلب أغراضه وهو يدمدم بزئير الغضب، فلما انتهيت وقفت وفي يدك كومه من الملابس المتسخة، تنادى الحرس كي يأتي أحدهم ويذهب بملابسك لأمك التي تنظر خارج السجن.

... لم يجيبك أحد...

ناديت أسماء الصولات في البداية، ثم أخذت تدق الباب بأطباق الصاج، سألتك: مالك يا تيمور

صرخت بلكنتك الإسكندرانية، وصوتك تقتله رنة الألم: ولاد الكلاب أمي هنا من الصبح وسايبنها واقفه في الشمس، ما دخلوهاش الزيارة ألا دلوقت، وهى قاعدة بره مستنية هدومى... واستدرت تصرخ بعزم ما فيك تنادي الضابط نقيب العنبر:

- يا عصام... يا عصام يا بن الكلب... أمي واقفه بره في الشمس... افتح يا بن الكلب....

لحظتها فعلنا ما يتوجب علينا فعله... ما تعودنا فعله... فكل أم لرفيق كانت أم لنا جميعا، أمهاتنا اللائي قدن المظاهرات في الشوارع من أجل أبنائهن... وتوكلنا وبسملنا وعزمنا وقمنا نصرخ معك، وانكببنا نطرق بقوة أبواب الزنازين بصحائف الطعام... ولم تمض لحظات حتى تحول العنبر في ظهيرة الجمعة الى بحر هائج من الصخب والضجيج... واستجابت كل الزنازين دون أن تعرف شجون تيمور، وتيمور يسب ضابط العنبر النقيب عصام بكل الشتائم المشروعة والغير مشروعة، وأطل النقيب من الباب الحديدي والصولات خلفه ينظرون قائدهم في خجل:

- ما لك يا تيمور؟

- أمى واقفه بره من الصبح خدوا الهدوم ليها

لم يجرؤ النقيب أن ينبث بكلمة وأخذ الملابس صاغرا، وعاد باب الزنزانة ليغلق علينا ثانية... وقد سقط من الذاكرة كل ما اصطحبه معه من رقة ولطف وبقي عنفه، ورحلت منه الرغبة في دخول الامتحانات سريعا، عاد لرفاق الأيديولوجيا يناوشهم ويقاتلهم على ساحات الفعل الثوري والسلوك المفعم بالانتهازية لدى الأخرين... يقاتل فيهم خبثهم وتعرجاتهم، ورغم ذلك بقي تيمور يصاحبنا الزنزانة....

* * * *

لماذا فعلناها معه... هل هو الملل، لماذا حككنا أنف الأسد... لا ندرى، لكننا بعد أن اغتنمنا زمن انغماسه في محاوراته وحروبه الأيدلوجية التي لا تنتهي... تركنا ذات يوم على طعام الغذاء صحون الخضار وانقضضنا على نصيبه من اللحوم والفاكهة....

لما انتهينا ابتسمنا لفرط جمال لحوم شواء الفراخ، وحلاوة التفاح الذي كان من المستحيل التعرف عليه في منازلنا الفقيرة... لكن شبح تيمور ظهر لنا لحظتها... قلت لجلال مقلد مؤنِّبا:

- يعنى مش لاقى إلا نصيب تيمور الملوانى من اللحمة وتورطنا فيه...

قال ساخرا وهو يرجع بأنفه الروماني للخلف:

- جرى إيه يا فالح... مش أنت اللى خلصت على اللحمة الأول....

- طب يا جلال يا أخوي... بدل ما تخلص على الأكل معاي... نبهنى... صحيح التفاح طعمه زي الشهد... صحيح اللحمة الى عملتها أم أخوك عصام الشهاوى تخلى اللعاب يسيل... لكن ساعة والزنزانة ح تتقفل على أنا وأنت وتيمور... استطردت وكلانا يضحك....

... عارف البولدنج سبايكي بيعمل أيه في القط توم لما يعتدى على ابنه... لاحظ يا جلال يا أخوي أن المعارك بينهم تجرى في الهواء الطلق وحول حمامات السباحة... موقع المعارك بيخفف شوية على القط توم من الأذى. أما مع تيمور فالزنزانة ح تتقفل

علينا ليلة كاملة... من السادسة مساء حتى السادسة صباحا... ساعتها بح خلاص ... نعم... هز جلال مقلد رأسه وهو يضحك باستهتار...

تخيلنا جدران الزنزانة وهى تدك بعظامنا، أجسادنا محشورة في نظارة الباب، وقد برزت رؤوسنا من الجانب الأخر... ربما عن لاحد رجال الحرس وبالأخص الصول سيف أن يجدها فرصة ذهبية ويفصل بسيفه أعناقنا عن أجسادنا...

وعندما بدأت الشمس تغيب ... قلنا راحت السكرى وجاءت الفكرة... كيف سنتصرف... يجب أن نغادر الزنزانة هذه الليلة... كيف؟ ادعينا المرض... ذهبنا الى مسؤول الحياة العامة وطلبنا منه أن يبلغ إدارة السجن بإصابتنا بمغص كلوي حاد وحمى، وضرورة انتقالنا الى مستشفي السجن...

في ركن قصي من الباحة الداخلية للعنبر رقم واحد، وبجوار باب العنبر جلسنا نتمثل الضعف بخبث، والجميع يواسينا، ونحن نتمنى سرعة الانتقال إلي المستشفى قبل أن يكتشف تيمور ما حدث... نلاحظه بطرف عيوننا وهو يحول حول الزنزانة هنا وهناك، ننتظر بفارغ الصبر، حتي سمعنا رتاجها الضخم يغلق عليه، ساعتها شعرنا بالراحة، تبادلنا أنا ومقلد الابتسام، ونحن نتبع مسئول المستشفى إلي خارج العنبر... لكن صوت تيمور الجهير أمسك بتلابيبنا على بوابة العنبر ونحن متلبسون بالجرم...

تصاعدت طرقاته العنيفة على باب الزنزانة وصوته المميز يطاردنا:

- يا ولاد الكلب... سرقوا لحمتى، التفاح، يا فتحي يا عبد الظاهر يا بن الكلب... جلال يا مقلد يا حمار يا بن الحمار... سرقتم الأكل يا ولاد الكلاب... اللحمة... التفاح... يا سعد... الحق ولاد الكلب قبل ما يروحوا المستشفى... سرقونى... ح تبقى أنتم والحكومة يا فتحي عبد الظاهر ...

وقفنا مثل لصين أُمسك بهما في حارة سد نبتسم في براءة... والجميع يناوشنا بعتاب ضاحك... وعدنا لكن بعد أن أحضرت له زنزانة الحياة العامة نصيبا مضاعفا من الطعام والسجائر التي لم يكن يدخنها... وعدنا ولم نكن لنعود قبل أن يحصل على ما أخذناه وإلا كان ليأكلنا نحن....

* * * *

عدنا وعاد أحمد شرف يلقى بجريدته المسموعة مساء كل يوم، وعاد أحمد عبد الله يلقى مجلته اللاذعة التى أسماها الغبراء، والتي لا تقال الا في الليالي الغبراء... فاتحا حوار مع بقية المسجونين بقدراته الفائقة الى الولوج إلى لب القضايا ببساطة، روح الديموقراطية العميقة التي مكنته من قيادة اعتصام 1972 والذي نعته عليه الأيدلوجيين بالليبرالية، قوة حجته، سخريته، حضوره، منطقه، صوته القوى، قوة شخصيته، قدرته على صياغة أفكاره بالطريقة التي تبلغ الإفهام... كمال خليل... شعاراته التي ألهبت الحركة الطلابية على مدى عقود، خرجت على وقعها عشرات المظاهرات، وقادتها عبر مواجهات دامية مع الأمن المركزي،

وجبات الضرب التى كان ينالها بشكل خاص، محمد المخزنجى بوجهه البريء وأفعاله الشيطانية مع حسام سعد الدين، صدقي القصير، محمد فتيح... شوقى الكردى، والنبيل نبيل القاسم، أسامه خليل وعبد المولى... القط... عنف ماجد إدريس وطلاوة محمد الشبة، وصمت حسن خليل وابتسامة الدرديري، عصام يوسف وزنزانة الحياة العامة حيث يتقاسم الجميع كل ما يرد إليهم من طعام وسجائر ونقود...

عدنا إلى عالم السجون وعنف النظام، وحفلات الضرب الجماعية، بانتظار بلوغ النظام إلى قناعة بأنه حتي ولو سار على طريق رفيقه ورئيسه عبد الناصر بممحاة، حتي ولو تخلص من الحرس الناصري القديم وأودعه السجون مدعيا بداية عصر من الديمقراطية، حتي ولو أعلن تملصه من النظام الاشتراكي القديم، ليبدأ طريق الانفتاح على السوق الحرة، حتى ولو تخلي عن حلفاءه في الحرب وعلى رأسهم الاتحاد السوفيتي وألقي بهم من حالك، حتى ولو فعل المستحيل، فأن الولايات المتحدة وإسرائيل لن تأخذهما به شفقة، ويقدما له خروج أمن من الأزمة حتى ولو كان قطعة من الضفة الأخرى من القناة، موطئ قدم صغير يقيه غضب المصرين من التلكؤ في تحرير سيناء. عندها اتخذ قرار بحرب التحريك، وبدأت السجون تخلو من نزلائها.

* * * *

ثلاث ساعات أمضيناها سويا، كنت مسالما وديعا مستسلما، وقد راحت عن عينيك شراسة حروب دروب اليسار، واختفت الجروح التي أثخنتها معارك الأيدولوجيا، وبقيت دهشه مفتوحة على العالم الفسيح، نتساءل عن ما الذي حدث... لم نتحدث في السياسة... لم تجرى على ألسنتنا الهزائم التي عاصرناها... لم نتحدث عن الأحلام الشامخة ورايات الفرح التي تهاوت منذ زمن طويل حتى تعرت جزوع حياتنا، لم نكشف عن الآلام التي حملتها النصال المغروزة في نخاعنا دون توقف، تتسع عيوننا بالاستغراب والغربة... يحدونا أمل بأن ثمة قاع للهاوية... ثمة لحظة للارتطام بالقاع... للتهشم... فلا نجد سوى سقوط بلا قرار، سقوط بلا هاوية، كي تهشم أفئدتنا على جوانبها المفزعة..

ثلاث ساعات أمضيتها معه أراه أمامي، رأسه المدورة، شعره الخشن القصير، جسده القصير القوى المتين، المدموج كبناء حجري صلد يتحدى الزمن، يطل منه عيني طفل وديع مسالم، أراجع في عينيه سهام صبري ودلال وديد وأمال عبد الهادي وانتشارهما الشهير من أجل عفاف مرعي المحبوسة فى زنازين سجينات عنبر الآداب...

فهل انتشرت أنت أيضا، هل انتشرت كما انتشر القليل منا، وانطوى على ذاته يأكلها ومخالب الندم، والشعور بالذنب تنهش شرايين تنزف بلا توقف... هل انتشرت وهربت بعيدا للحواف، تاركا مركز الدوائر ومنصات اليسار ومواقع الانطلاق نحو المستقبل

لأصحاب الملاعق الذهبية وأبناء الذوات والذين اقتاتوا الملاين من انهيار المعسكر الاشتراكي كحصة وداع للمبادئ والمثل، يطلون علينا نحن أبناء الكلاب وابتساماتهم تخرج لنا ألسنة القرف... والحرس القديم لكل ما هو قديم يتوسل أبواب السلطة عارضا خدماته بانتظار هبات السلطان...

ماذا كنت لتفعل لو حضرت جلسة استماع لكتابة تاريخك، لتجد أحد زملائك ينكر وجودك مدعيا بأنه لا يعرف، بينما ظلت أمه تشكو رماد سيجارتك الذي أحرق كنبتها طيلة عقود، ماذا كنت تفعل والفتاة البريئة اللندنية التي استدعيتها من لندن عبر البحار لتكتب تاريخ مجهول، تفتح فاهها عن سعتيها مشدوه باللغة المزورة، لفارس أخر يحكي عن بطولاته المنفردة، ليقدم نفسه البطل الأوحد الذي أشعل منفردا ثورة الجياع في يناير 1977، متجاهلا (بوقاحة منقطعة النظير جميع رفاقه، والذي جلس بعضهم حوله في صمت مريب).

المزورون... المحترفون تسلق الثورات ليحولوها سلع تباع في غلاف رقيق من الكلمات ومخزون من الأكاذيب... الذين يبيعوننا على قارعة الطريق لكل مشتري... صحف ثقافية صفراء، مجلات متعددة التلون... صناديق متعددة التمويل... منظمات متعددة التوجه... حكومات وزعماء يتعلم الاستبداد في مدارسهم كيف يكون يتم تدمير الشعوب على حق، جهل مُدقع... نهب لا يُشبع... استبداد شق طريقه من الثورة إلى العبودية حتي مشارف التوريث....

ثلاث ثورات شعبية؛ تمكنت جحافل (المزورين) من تدميرها؛ ثورة الجوع وثورة الحرية وثورة الهوية، وها هي الدولة المغتصبة الصهيونية، تبتلع القدس والضفة الغربية والجولان، وسط جعجعات وطحن بلا صليل، وصمت مريب، وضعف لم تشهده أمة من قبل، وتوطأ ومباركة أعراب النفط، فهل يبقي علينا العمر حتي نراهم يقتطعون سينا التي قاتل جيلنا المنكوب من أجلها...

* * * *

أه تيمور... في نهاية جلستنا قمت بتوصيلي في سيارتك حتى المنزل على وعد بلقاء... حدثتني عن انتهاء انتدابك في مرسي مطروح، حدثتني عن رغبتك في العودة إليها، لم افهم السبب... ظننت انه هوي البعد عن القاهرة والإسكندرية بضوضائهما، لم افهم إنه ربما الرغبة في اعتزال عالم منهار، عالم من الضوضاء والصخب والتلوث النفسي... فهل مللت حقا مواصلة الانتشار...

هل مللت الانتشارات القديمة، هل تعبت من الخيارات الخاسرة، بينما يجيد الرفاق الاختيار... لا اعرف... وكيف لي ذلك ونحن لم نتحدث عن الخيارات الصحيحة والخيارات الخاسرة... كيف لي أن اعرف سوى ما حكيته عن المقاول الثري وسيارته المرسيدس الشبح التي عرضها عليك، حتى مجرد قيادتها رفضته والخوف يمسك بتلابيبك، منها ومن فحش ثرائها، ثلاث ساعات فقط كان كل ما أمضيته معك

قبل أن تصلني فجيعة موتك بعد شهور ثلاثة، فكيف لي أن اعرف...

الآن كل الذي أدركه أن ملاك الموت كان ينظر إلى بوقاحة من فوق رؤوس الذين أحبهم، أخي الذي أتاه الموت وهو في السابعة عشر- من عمره، وجهه المدور الأبيض الوسيم، ابتسامة الموت تضايف الفرح على وجهه الصبي، تحية وداع قبل أن يأخذه معه إلى عالم الجليد... الأخر الذي اغتاله الموت وهو يجهز عرسه، ابن العم الذي مر على لتحيتي بعد خروجي من سجن الى سجن، الصديق الذي التقيته في أخر لقاء لنا بلندن قادما من دبلن، حاملا هداياك له، يصلني من أطفاله نبأ ينعون موته وهو لم يتعدى الأربعين من العمر، من بطاقة بريد قادمة من مدينة التل شرق دمشق، وأظل ابحث عنهم، استقصي- أخبارهم بين رماد المدن التي دمرتها الحرب الأهلية، والتي عبث بها كل طغاة الأرض وأراذلهم... ترحلون ليبق لي سجن أخر، قضبانه حياة ميتة ونفوس ميتة ومستقبل ميت، هربت منه تلك الملاك التي صعدت من الطابق الحادي عشر إلي برودة الأسفلت وصوان الرصيف...

هل مت بسكينة، أم أن (زَيْنَب) أخت الحسين وابنه فاطمة الزهراء، نعتك دما على رمال كربلاء... وأشهدت عليك يزيد ابن معاوية وهو يدور بمنخاسه في عينيك تشفيا وغِلّا... هل مت بهدوء؟ أم أن جثتك مثل بها بعد أن سلخت

في دروب مكـة؟ هـل مـت معـاف أم أن إبهامـك قطـع قبـل أن ينقل من أحراش بوليفيا الى دهاليز المخابرات المركزية...

جمـيعكم كـان مـلاك المـوت يتـوج رؤوسـكم، يسـكن عيـونكم في دعـه وسـلام، يسـخر مـنى، يرحـل بكـم تاركـا في فـؤادي بقايـا مـن نفوسـكم الزاهـرة وشـجن حـزين، لتـبقى رغبـة حـارة لـو يتفضل وينعم على بزيارة...

* * * *

امرأة من مخمل

كان ينتصب هناك خارج المعمورة بآلاف الأميال، منزل قديم مصنوع من عارضات خشبية قاسية من خشب البلوط، تكاد تطيح به الرياح وسط ظلمة صفراء عاتية، تساءل كيف يتسنى له الصمود!

إسفلت هذا أم تراب البراري يتلاشى في صحراء جليدية. ظلال تبزغ من بين الرياح تجد السير نحوه، يطرق الباب بتوجس، ارتفع صريره العاتي وهو يفتح من تلقاءه، يلمحها هناك تقف منتحيه جانبا، طويلة سامقة كشجرة سرو، ترتدى الاسترتش، ضيق قصير يعلو الركبة، يضغط بنعومة ردفين مستديرين كقبتى معبد ألهى، ثم ينزل محددا معالم فخذيها النابضين الخاليان من الشحوم، بينما بدا أعلى الساقين عند التقائهما متباعدين في قوس صغير كهلال مقلوب يستلقى على عمودين من الوله المشتعل... يعرف هذا النوع من السيقان اللذان قدا من عضل شديد المراس

كساقي مهرة، يصيبه الأسي أمامهما، إذ كيف يتسنى له التفكير في اختراق امرأة كهذه..

نظرت إليه بطرف عينيها وهي ترتب لأطفال أربعة فراش عتيق، ما لبثوا أن اختفوا وعندما استدارت نحوه عاد لظلال التساؤل، لقد خسرت معركته منذ البداية.

يعدوا بين النجوم القطبية، يسبح بين الأضواء والظلمة، الفراغ تخترقه الشهب، والفضاء ترصعه كواكب وشموس ضئيلة، والحدود صحراء ثلجية لا نهائية، إذا كان غير قادرا على استيعاب المحدود، فكيف يتسع عقله للا محدود وهو عاجز عن التسليم به، والاستسلام له...

وجهها الخالى من الدمامة، الخالى من الجاذبية، لم يكن مصدر متعة أو نفور... جسدها الخيزراني الممشوق مشدود كوتر.. قضيب نافر في حالة قذف، ساقيها البضتان القويتان مرسومتين في التواءات حد السيف، يعبد جزع السرو هذا، يشتهيه شهوة الحياة، ويخافه خوف العاجزين.

يطفو بين المجرات، يتخيلها فيعتريه الخوف من الوحشة، الفراغ، الكائنات الغريبة التى ستتمكن من جسده، الأذى، التلف الروحى، هنا تحلق وحوشا خيالية، أشباحا تمتص الدماء، قبول العبيد بمصيرهم داخل المجال الحيوى القاتم للأقوياء.

لمحها تستدير وتنظر باتجاهه دونما بغض، وكأنها لمحت ظلاله المدمجة في فراغ الوحدة، تمتمت حديثا مبهما دون أن يصدر عنها صوت، كانا يتفاهمان عبر التخاطر.

من طاقة في حائط جانبي، أطلت رؤوس أطفال تربطه بهم صلة الدم وقد بترت أعناقها، كانوا يمتصون من إبهامهم لبنا ورديا، خيط أحمر رفيع ينسكب من أفواههم اللينة الصغيرة على الأرض، مشكلا كتل مخروطية لزجة من الدم المخثر... وللعجب كان دمه...

من موقع سحيق في عمق الفضاء تدفقت موسيقى الروك، سبحت ظلاله على سفوح أمواج تأتي من الأفق، يعتريه انتعاش متوجس، إذ أن الخطر لا يتوقف عن الانبعاث.

يراها تقف هناك في اكتمال، وظلاله تجن بجسدها الغلامي، مفتونا بساقيها، ردفيها، خصرها الدقيق، صدرها النافر، دعوة بالتحدى للقتال، يشاهد صورته في عيونها الزجاجتين يبتسم في بلاهة وخور، قبل أن تنبعث في المكان حية رقطاء لها عدة رؤوس تتلوى في صخب على أنغام الموسيقى، منسحبة ببطء مثير قبل أن تتلاشى وتغيب بين الشقوق، حدقت الظلال في المكان باندهاش، ليس ثمة مرايا، ليس ثمة سطوح مصقولة، أين هو؟ ومن هو الكائن

النصفي الماثل أمامي؟ يعرف بطريقة ما ... ولكن كيف يتأتى له أن يكون هنا وهناك في آن واحد...

التَوَهَّمَات، المُبْهَمُات، الالتباسات... الخوف يأتي وحده، لقد تخلق في نسيج الخلية الأولى... الخوف... كيف ينتزعه من الروح...

أرادت أن تميل نحوه، عندما طرق الباب ودخل ثلاثة رجال من جنسها الآري، داهمه الخذلان وتراجع مقهورا، خيبة أمل جديدة كمئات الخيبات التي مرت بحياته، صوت الموسيقى المنبعث من الأمكنة السحيقة، دعوتهم لها إلى الرقص... تتجاهلهم وتستدير نحوه، تخاطره دون صوت... "لماذا تتخلى عني بسهولة"... تتجه نحوه، يستجمع ظلاله ويتوجه إليها، يشرعان في الرقص سويا...

ظلام وانتشاء، سعادة واشباع، يمضان سريعا، ولا يلبث أن يأتي الضوء شديد الاصفرار، يلمحها تتمطى عارية بعودها السروي، خلفها يتحول الحائط إلى بساط من المخمل الأحمر، تتراجع هناك، حيث يتشكل في بساط الحائط المخملي تجويف داخل الحائط، مكسو بالمخمل، تتراجع إلى الخلف، تصعد الحائط، تتكئ بجسدها العاري داخل التجويف المخملي الناعم... يشهق جسدها الوردي بالدماء، يحتوي التجويف المخملي جسدها الممشوق الممتد كما يحتوي الهدايا الثمينة... تتمدد، يتماس الجسد بتعرجاته

الـتى جـن بهـا وكسـاء المخمـل، تمسـك بـين يـديها بصـليب فضي- تضــمه إلى صــدرها الناهــد، تلتفــت إليــه قبــل أن يفصــل بيننــا غطـاء الصـندوق يهـبط مثـل ضربـات القـدر، يشـعر بنعومتهـا، تختفي علبة الهدايا المخملية ويعود إلى العراء وحيدا...

الوحشــة... الريــاح الثلجيــة... يخــرج الخــوف مــن مكمنــه، يشرع قلاعه ليقلع منتهكا ظهر البسيطة...

* * * *

الأميرة الدينارية

I gotta take a little time…
A little time to think things over …
I better read between the lines…
In case I need it when I'm older …

سونات من الثمانينيات

عندما ألقت الساحرة العجوز على العشب بالسبعة البستونى شَعَرَ بوخزه في القلب، سألته بلكنتها الغجرية وابتسامتها العريضة الساخرة عما يثير حنقه... قال وهو ينظر الوشم الذي يرسم وجهها:

- وددت لو كانت سبعة القلوب لعل حظي مع النساء يتغير...

قالت وهي تجمع أغراضها في سلة من سعف النخيل:

- النساء تحب من يعطى... لم يستطع آن يكبح جماح نفسه عن يقهقه بسخرية... اتسعت عيناها مستفسرة بتهديد ساحرات الأساطير القديمة...

قال: "كيف يخفي على ساحرة عجوز تعلم القاصي والداني، وخبرت الماضي والحاضر حقيقة أن النساء تحب أن تأخذ وبنهم".

- وما الفارق؟ قالتها وهي تدفع بجسدها الثقيل لأعلى راحلة، تصاحبها جوقة من رنين خلاخيلها وشخللخة عقود صدف وكهرمان، على الجسر الحجرى التفتت نحوه وهتفت بلكنة غجريات البادية:

- "تعلم يا زين أنك محبوب؟"...

هز رأسه: "ولكن بلا حظ"...

* * * *

على طاولة اجتماعات إحدى فروع الشركة الوطنية لتجارة الأدوية تربعت بخيلاء نساء دميمات، ورجال نافذون لا تعوزهم البلادة، جلس متجاهلا الإنْصاتُ للكوميديا السوداء الجاري تمثيلها على مسرح البيروقراطية المتحكمة في العباد، منشغلا عن الوقائع الجارية في أزمته الممتنعة عن الحل منذ انفصل عن زوجته، بالتطلع من خلف زجاج النافذة الكائنة في الطابق السادس إلى حركة الموج والمراكب القليلة التي تركت أشرعتها تعانق الرياح

This lonely life...

الشمالية، تأخذها معها نحو الصعيد الأعلى، يغالبه شعوره القاسي بالوحدة، وما الذي سوف يتناوله على طعام الغذاء؛ وبحثه المضنى عن المستحيلات الثلاث التي يصعب أن تجتمع معا في امرأة؛ الحسن والملاحة... الذكاء والثقافة والتوهج العقلي... الطيبة وسلامة النفس... واللائي من العَسِير اجتماعهم في امرأة ما.

كان حضوره كمندوب عن إدارة الرقابة والتفتيش التابعة للشركة القابضة مقتصرا على التعريف بكيفية تطبيق برامج الحواسيب الجديدة والخاصة بمتابعة مخزون الأدوية وحركتها بالصيدليات، أخرج جهازه اللوحي وانتحي جانبا، غير مدرك أن الذي أضناه في البحث عنه. يقبع أمامه تحت خيمة من الظلام الكثيف.

قطع عليه أفكاره صوت مدير الإدارة يدعوه لعرض البرنامج الخاص بمخزون الأدوية، فقام من فوره، يشرح البرنامج على البروجكتور الخاص بالإدارة، يعاوَنَه مساعده مهندس شاب، وعندما انتهي كان الجالسون قد أحتلوا الكرسي الذي كان يجلس عليه، فبحث عن أخر، فلما جلس وأراد أن يشرب فنجان من القهوة، انتبه فجأة إلى أن حظه العاثر أوقعه قبالة خيمة سوداء من قماش صناعي محلي بشرائط من الدانتيل، بَرَّكَت أسفلها في سكون امرأة شابة تتذرع بالصمت؛ سيدة... آنسة... عجوز... لا يعرف سوى أنها تبدو في مطلع العقد الرابع من العمر، تنتمى لإحدى مدن الصعيد، وتختفي خلف نقاب عجيب، يستقر فوق رأسها مسطحا، مثبتا بواسطة عصابة من قطيفة مشغولة بخيوط

الفضة، ينسدل فوق ثوب أسود، يضيق عند الخصر بقدر كاف كي يعلن عن أن خلف الإسدال يقيم نهدين مثقلين بالحيرة، وردفين يقاومان الكسل، ويشع من فتحتي النقاب بؤبؤين لعينين ساكنين بالذُعْر والتَوَجَّسَ...

فكر إنها بهذا الشريط الذي يتوج نقابها، جَعلت من نفسها شبيهة بنساء الإمبراطورية البيزنطية وأميرات الحملات الصليبية، فكر إنها تشبه الأميرة البستونية السوداء، أو هذا ما أخذته إليه تأملاته التي توارت بعيدا عن صخب الاتهامات الجاري تبادلها على طاولة الاجتماعات، وسط الصراخ وانفعالات تحاول أن تكبح جماح غضب إدارات تعلمت جدارة الفشل، وأهميته التي لا غني عنها في التقدم في عالم الترقي والصعود...

في البداية ظنها متشددة دينيا، أو انصياع لسلطة رجل أو آسرة يتوطن بها التزمت، فكر إن القبح والدمامة سببان كافيان للتخفي خلف النقاب، لكن تواترات أصابعه جعله يعتقد أن الأمر لا يعدو سوي أعراض نفسية لطبيبة في مطلع الثلاثينيات تتوارى من إهمال الزمن وتطفل أجلاف الصعيد، لكن ذكائها وحضور بديهتها، وصرامة إجاباتها أمام هجوم واتهامات الجهة التي يعمل بها ويمثلها في تلك الاجتماعات، جعلت الظنون تغتاله بجسد شب به حريق شوه معالمه، ثم تذكر أن الحرائق التى تلتهم النفس أشد سوء من حرائق الجسد، ولهذا استقر لديه أنها أقرب إلى الأميرة البستونية

السـوداء الـتي تـزين أوراق اللعـب، وترمـز إلى الآلهـة أثينـا آلهـة الحكمـة والقـوة والحـرب، منهـا إلى عضـوة في أحـد خلايـا الجماعات الإسلامية المتشددة، وعندما سألها: لماذا؟

طرفت عيناها بتجاهل صارم.

* * * *

بالأمس كان ثالث الاجتماعات العاصفة التى عقدت بالمقر الرئيسي للشركة التابعة للشركة القابضة للأدوية، والواقع على كورنيش النيل، والمتخصصة في تجارة الأدوية المحلية والمستوردة وألبان الأطفال والأدوية المدعومة بحجة الحفاظ على عدالة التوزيع، وللمرة الأولي حضر الاجتماع العضو المنتدب للفروع والصيدليات الذي جاء خصيصا ليزهو بانتقامه من مدير عام إدارة عقود السلع الدوائية والمستلزمات الطبية، والذي كان منافسه على المنصب الذي يشغله الآن وعين فيه لتوه، وإبلاغه بنفسه قرار تحويله وإدارته إلى نيابة الأموال العامة، بادعاء تلقيه رشوة لإرساء مناقصات على إحدى الشركات العالمية التي تقوم بتوريد عقار (الايميوران) الخاص بالمناعة، وعقار (النورديتروبينو) الخاص بأمراض النمو.

Now this mountain
I must climb
Feels like a world
upon my shoulders

أنكمش متواريا أمام حضور العضو المنتدب العاصف وخروجه الظافر، فقد بدا المشهد مثيرا للسخرية، فالدكتور الذي كان عميد سابق لكلية الصيدلة وعضو بارز في الحزب الوطني، كان قادما من الوزارة وهو يحمل معه رائحة نتن تزكم الأنوف، لفرط الاتهامات التي وجهت له بالفساد، كان أخرها صفقة الفياجرا التي تورط فيها مع وزيره المُقال، ورغم ذلك همس لعامل البوفيه الذي يثق به ثقة عمياء أن يدعوها كي تدخل مكتبه قبل الاجتماع، وذلك في غيابه إذا ما جاءت غدا.

قبل نهاية الاجتماع دس لها قصاصة ورق، نظرت إليه بشك من خلف دموعها وهى تقرأها:

"دليل براءتكم تستطيعين الحصول عليه من أسفل روزنامة مكتبي".

شع خلف النقاب بريق عينين يغشاهما دموع عدم الفهم وحزن عميق. أومأ بعينيه مشجعا، فحيثما أشار عليها بالبحث أخفي صورة تقرير داخلى رفعه إلى الأستاذ الدكتور عميد الصيدلة السابق ورئيس القطاع المالي الحالي، يضم دليل البراءة من الاتهام الموجه إلى مكتبهم، وخاصة رئيس الإدارة المشهود له بالنزاهة والمعروف بطاقته الضخمة على العمل.

* * * *

اليوم جاءت تحمل نظرة تسللت إليه عبر الإسدال، الذي يفصل بين وجهها الغامض وعالم الضوء، مفعمة بنظرات وإيماءات

العرفان. استقبل نظرتها باهتمام وداخله يضحك، فقد أوشك طرفي فخ المغامرة الذي حاكها حولها أن يقبضا على الفريسة.

أعترف لنفسه أنه لم يكن معنى ببراءة أحد، قدر اهتمامه بنسج بيئة من التواطؤ تسمح له بالتعرف عن قرب بعانس شابة من الصعيد الجواني، تتسم بفطنة مغلفة بحصافة وادراك، تفصل بينها وبين عالم غارق في التلف حجب من دانتيل أسود سميك أقوى من أسوار القسطنطينية، التى استلزمت من السلطان محمد الفاتح صناعة المدافع الضخمة، أطلق منها ألاف دانات المدافع التي دكت أسوار أوربا المنيعة، حتى استولي على عاصمة كنيستها الشرقية... فهل أنت على وشك الاستيلاء على جسد امرأة محصنة بكراديس من أعراف وتقاليد، ومسورة بخنادق الكآبة ومجانيق الغضب، وانعدام البهجة، كيف لك أن تخترق تلك الحصون لتقطف شهد الجسد وتتنفس رحيق الشهوة..

* * * *

على باب المصعد وكانت تقف جواره، انتهز الفرصة وقرر إن يطرق الحديد وهو ساخن، وأعاد سؤاله القديم:

- لماذا؟

هذه المرة أجابت بتصميم لا يشوبه التردد بإن رجال مدينة القرود هذه لا يستحقون رؤية نطفة من شعرها... اعترته صدمة، وقبل أن يشرع في إعادة النظر في الأمر كله وينسحب عائدا إلى عالم الوحدة الذي يعانيه (عُزْب) المدن الصغيرة.

عاجلته قائلة وهى تشير أسفل ظهرها، إن شعرها ينسدل حتى أسفل الخصر، لحظتها أصابه الخرس. أثناء هبوط المصعد ولم يكونا وحيدان، هتف قائلا:

- Can I see it? ... one day?

في ساحة عنابر المخازن الطبية أوضح لها بلهجة عملية مؤكدا على صواب وجهة نظرها، وأن الحق معها ولا شك، فهؤلاء رجال (والحال هكذا) يستحقون أن تعلق رؤوسهم على أسوار إحدى المدن التي غزتها جحافل التتار... ألم يُسلم سلطان بغداد عاصمة الخلافة لفرسان المغول، ووقفوا يشاهدونهم وهم يعبرون نهر دجلة على جثث نساءهم المغتصبة، ودماء أطفالهم المراق مثل فيضان مدمر اجتاح القري، حاملا على ظهره مئات الألاف من كتبها ومخطوطاتها بسبب عنة الرجال، وطبع الخيانة المتوطن لديهم.

تساءلت: يعني أيه (عنة)؟

قال متهربا: يعني... "مش جدعان".

هزت رأسها موافقة، قالت إنهم يزهون كالديوك في بلاط السلاطين، وأضافت: والنساء أيضا.

- طبعا ... طبعا... والنساء أيضا... لهذا

Through the clouds I see love shine
It keeps me warm as life grows colder

دعينا نعبث بهم قليلا... دعيني ألقي لك على طاولة الغد بأوراق اللعب...

نظرت نحوه بشك:

- ألا ترغبين في اللعب قليلا... وأضاف: غدا سوف أحضر الاجتماع بجوربين من ألوان متنافرة. نظرت أولا غير مصدقة، ثم ضحكت للمرة الأولى.

حدجها ببرود، يسألها: مستعدة؟

مثل مهرة حرون انفلتت هاربة، تابعها وهو يبحث عما أدعته شلالات من ليل، فلم يرى سوى أرداف الخيول.

في ظهيرة اليوم التالى وبينما تتوالى على شاشة البروجكتور برنامج إدارة ومراقبة الأدوية في مخازن وصيدليات الحكومية، كشف خلسة وهو يشرح بجدية فوائد النظام عن جوربين أحدهما أسود والثانى بيج... في العرض التالى كان قد تخلص من أحدهما وبقي الثاني يلمع أسفل النيون.

كان التجاهل نصيب مناوراته... حسنا في العرض الأخير من السوم الثالث والذي كان يشرح فيه كيفية اكتشاف البرنامج لتواريخ انتهاء الصلاحية، لمع البرق يتلألأ من أرضية القاعة عن كف لقدمين دقيقين ناعمين، ينامان عاريان في كنف صندل أنثوي كعبه يتجاوز الخمسة سنتميترات، إلا من سيور رفيعة مجدولة باسلاك الذهب، يلفان بنعومة أصابع دقيقة وأظافر طليت باللون

الوردي... ليفوح فضاء المكان برائحة عطرة لبشرة رَخْصة من بتلات أوراق الروز، تشف عروقهما بالدم القاني..

... يا سبحان الله... ما أرق أقدام إمائك...

... يا الله ... الرحمة بعبيدك من جمال نسائك...

لم يلحظ المجتمعون أوراق اللعب التى ألقيت في فضاء القاعة... العشرة الدينارية... ورقة الروا... البنت البستونية وقد تحولت إلى الأميرة الدينارية... أوراق كثيرة طفت ثم تلاشت كفقاقيع بلورية في الفراغ، يزوى الصخب ويحل الصمت، وهو يداعب بأصابعه ظهر كف قدم أنثوي عاري، ليبق في قاعة الاجتماعات الرئيسية للإدارة العامة للصحة أفواه لنساء قبيحات ورجال شمعيون تتحرك بلا صوت...

تلاشى الروا الهارت الدي فقد عقله، فغرز سيفه في رأسه ورحل، لتبق ظلال صولجانه ملقى على الأرض يبحث عن الأميرة، وشيخ يمضى وحيدا مع ملكة القلوب وسط حشود الطواشية...

هَمسَ... أشترى آلاف الرقيق... أماء يتفجرن بشهوة...

تمني لو قالت... وشهر زاد تشتهى الخيانة

مرغمة وسط الرجال العاديون... تمني لو لفحت وجهه

In my life, there's
been heartache and pain
I don't know if I can
face it again
I Can't stop now
I've traveled so far
To change this lonely

بأنفاسها الحارة كي تسأله: لماذا لا تحبنى؟ ويجيبها... كيف وانا أتسلق الحياة مثقلا بالهموم، بينما الأيام تأتي تكتنفها الثلوج....

في فضاء يتنسم الارتياح، تلفظت بكلمة شكر، اجتاحه الغضب، غمغم بصوت واطئ وفي عجلة: كيف وسوف اخسر عملي بسببكم، ورئيسك الذي أنقذت عنقه من مقصلة نيابة الأموال العامة وأقبية النيابة الإدارية يحدج في بنظرات الارتياب. فتحت عينيها بدهشة، تسأله عما يمكن أن تفعله؟

- يعني عاوزني أعملك إيه؟

تلفظ كلمة عابرة ثم توقف، بعد دقائق قذف لها بقصاصة ورق اخذتها مضطربة.. وعندما قرأتها حل على وجهها الوجوم... كان قد كتب لها عبارة انتهت بالقول "... وأني أراهن على المغامرة باقتناص قبلة مجهولة العواقب من ثغرك المخفي وراء النقاب".

لم يلق سوي تجاهل، وارتعاشات تشف خلف الإسدال الأسود، في نهاية الاجتماع أسرعت بالرحيل.

وسرعان ما تقذف الأيام باجتماع عاصف بين الإدارتين في حضور نائب رئيس الشركة القابضة، كان محوره التقرير الذي سربه.

في البداية تلقى الرجل الأمر بدهشة وسخط، ثم أعلن مساعده وهو يتلعثم أن التقرير مزور، ساد التوتر قبل أن يفصح مديرها عن المصدر.

نظروا نحوه بغضب، كانوا يعلمون أنه لن يتورع عن الحقيقة، فقد سبق أن واجههم بأن قرار رئيس القطاع قذر ومختلق ولا يتسم بالنزاهة..

في الطرقة الخارجية تجمع الموظفون يستمعون إلى الصراخ الذي يجرى داخلها... رأته يتوجه نحوها بغضب، تراجعت بخوف، همس بتهديد:

- أنتِ مدينة لى.

- ليه؟ هو كان حد طلب منك حاجة!

اللى لازم تفهميه أنك مدينة لى، حتى لو كنت متزمتة أخلاقيا، فهذا ليس شأنى، يجب أن تسددى الدين الذي لى على مدينتكم المريضة بالعتة.

سألته باستغراب: ما الذي تعرفه عن الأخلاق... أجابها... الكثير... لكن المؤكد أن أخلاق العبيد لا تشبع روح فتاة حرة... وفضلا عما طلبته سابقا، أريدك أن تفصحى لى عن شعرك.

اختلاجة مثل قشعريرة البرد، امتدت كموجة تسري في بحر لتنتهى عند عينيها بومض غاضب...

وعلى أى حال واستجابة لحظه عاثر، كان هذا هو اللقاء الأخير، تم إيقافه عن العمل بشكل غير رسمى، ولم يسلم رئيسها فقد أعفي من منصبه، وتلاشت محاولات بُذل فيها جهود كبيرة، ومناورات معقدة كى تخرج أنثى أسرت نفسها في كهف الكبرياء، ومحادثات تليفونية كان حواره معها يبدآ دائما بتأكيده على كونها فريدة من

نوعها، وأن ما تعانيه ليس لسبب ما سوي كونها شخصية استثنائية يصعب استيعابها من قبل رحال عاديون، ليتحول حوار الليل شيئيا فشيئا الى حديثا عما تفعله الآن، وقبل أن تجيب يسارع بالقول إنها يسمع صوت المياه، ويتساءل فيما اذا كانت تسبح في البانيو أو مستلقية على فراشها، فتجيب بٌإيحاءات لا تعني سوي فتح الطريق لحديث هامس يوغل في مواربات حسية ممتنعة عن الإيذاء آو التجاوز حتى أصابه الضجر فتوقف، لتبق رسائل قليلة عبر المحمول وأسئلة مثل ما شأنك بجسدى؟ وإجابة من نوع إن الجسد جعل للسباحة في الماء، وللعشب للتمدد، وللسماء للتحلق... الجسد ليس جوهرة تلقى للهرم في خزائن مصفحة فيتحول ألي لعنة من العذاب... ليس جريمة يُأَسَرَ داخل سجن غير مرئي، الجسد مثل الشهد والحلوى، سكر تتذوقه الشفاه، ويذوب بين ثنايها...

... الجسد... يا ألهى أى نعمة أعطيت للعاشقين... وأى نقمة جعلت للمتشددين ومرضى العصاب والحصر النفسي...

* * * *

عام مضى عندما جاءته في الهزيع الأول من الليل رسالة غامضة:

- "أنا في القاهرة... أين أستطيع أن التقى بك؟"

لم يعرف ممن؟ توقعها خدعة لأصدقاء كانوا في الزمن القديم رفاق أحلام عصية ثم تلاشوا إلى المألوف، لهذا تجاهل الأمر... في الليلة التالية جاءته رسالة أخرى:

- "ألا تريد أن تسترد دينك؟ قل لى أين يمكن أن نلتقي؟"

... يا ألهى أين يمكن أن نلتقي؟

... ليس سوى مكان وحيد... كازينو على نيل المعادى حيث النساء مكان مُشرَّع للخداع... لكن شيء ما مفقود... شيء لم ينتبه إليه، إلا وهو حالس أمام نيل يمتد باسترخاء مبهم، وشمس تستلقي على صفحته تداعبه بوقاحة لا تنم عن ضجر... كيف سأتعرف عليك وأنا لم يسبق لى رؤية وجهك... أميرة بيزنطية... عانس تختفي حلف نقاب على طريقة بتولات الحملات الصليبية اللائي وهبن أجسادهن للسيدة العذراء والسيد المسيح، ولست حاشا بالأخير...

إلى أي مدي سيكون القبح محفور في وجهها... لكن لم يكن بين الجالسات من ترتدى الحجاب حتى يجد نقاب... وقف تنهشه الحيرة... ربما تردَدَت ربما الأمر مجرد خدعة... ربما انتصر رهاب الاغتصاب... وعندما قرر الرحيل شعر بطرقات صغيرة على كتفه...

... يا ألهى الرحمة... هذا النعيم الممتنع... تُنعمْ على إماءك بهذا الجمال، وتنهي عبيدك ألا يدنسوا فردوسك السماوي...

خمرية كنهر عذب، سامقه كنخل يطارد السماء، متألقة كشمس شتوية، في عيونها ينعكس ألق، يحمل وجهها تلك

الخطوط المحفورة لنساء المتوسط، وشفاه غليظة، ترتدى بلوز غجرى يكشف عن نحر وكتف عاريا... وقبل أن يتبادلان التحيات استدارت تكشف عن جدائل شعرها شلالات ندية تبحث عن رجل يعيش في ظلالها...

يهمس... ربنا نجنا من التجربة... وتهمس وكأنها تعانده... "أسدد دينى أولا".. يتهاوى منهار... يهمس وهو يملأ ناظريه بتاجها الليلي:

- عليك دينا على موضوع آخر! نظرت بغضب، قال:

- قبلة ولتكن فرنسية مرطبة بكأس نبيذ أحمر... هذا إذا كنت هي.

ولكنها هى... تقضى أربع أسابيع في القاهرة بمركز التنمية المحلية بسقارة... قلت: تنالين ترقية أنا ثمنها... ابتسمت دون إنكار:

- أنقذتنا....

- لكن مديرك تم تنحيته رغم كل شيء...

- نعم هذا موضوع يخص معايير الأخلاق الحكومية...

- لكنى كنت الضحية... ولي الحق في قبلة ولتكن فرنسية مرطبة بكأس من نبيذ أحمر.

- وأنا أيضا... الفتى الذي أحببته فسخ خطبته لي يوم سمحت له بقبلة... والأطباء الثلاثة الذين خُطبت لهم كانوا من مدينة القردة، عائلتنا لم يتزوج منا سوى المكرسة لأبن عمها منذ الطفولة... الآن نحن جمعينا عوانس... جميعنا ضحايا...

ابتسم بإشفاق وقال وهو يدعو النادل للحضور: تخففي عن نفسك فلا شيء ينبئ عن المستقبل، في عصرنا هذا قد يكون عدم الزواج تعاسة، في الوقت الذي يكون فيه الزواج جحيما.. فلما صمتت عاجلها بالسؤال الذي ظل يشغله منذ انهي مكالمته لها بالأمس:

- ولكن من أين جاءتك الجرأة على اللحاق برجل مثلي.

تذكر ذاك اليوم الذي طلبت مني التسلل إلي مكتبك والحصول علي التقرير؟ توقعت أن ينتهي بي الأمر إلى كمين.. ليلتها سألت ربي لماذا يلقي في طريقي بالرجال السفلة والأوغاد والمعتوهين، والذين لا يملكون ما يقدمونه للنساء سوي النذالة.

ضحك وهو يصور المفارقة، وقال إنه فاجأها، أجابت إنها ولهذا السبب غيرت رأيها في الرجال. هتف ساخرا: (يا سلام)، وهكذا حملت حقيبتك وتبعتني. قاطعته وهي تطلب منه التمهل، وتقول إن لم يكن السبب الوحيد...

فكر أي مصيبة أخري سوف تفاجأه بها، قالت إنها تلك النظرة التي ارتسمت على وجهك.. تساءل عن أي نظرة تقصد؟ غير مدرك . قالت بإباء " لحظة رؤيتك لقدمي عارية". كرر وراءها: قدمك العارية، في صندل صيفي ذو سيور مجدولة من أسلاك الذهب والفضة...

وقفت مضطربة ثم جلست وهي تمسح الطاولة برقة، وقالت تتحدث عن وهج النار الذي أطل من عينيه وهو يحدق مشدوها في قدماها لم يغادر رأسها..

قال إنها لم يعتقد أنها ابتلعت الطعم..

ابتسمت: أكان طعما؟

- بطريقة ما...

- بطريقة ما جعلتني لا أنام.

-Why?

حكت كيف إنها ذهبت إلى فراشها مسحورة، غفت وهي تتقلب بين الغفوة واليقظة، وهاتف يقاتلها... إذا كان هذا ما يفعله به رؤية كف قدم لأنثى... قاطعها: لحم أنثي يافعة ملفوف في سيور من ذهب... ماذا تبقي يا آنسة...

عقبت وعيناها تحدقان في عينيه إنها أمضت الليل تسأل نفسها... ماذا ليفعل لو رأي بقية الجسد؟

فرك جبينه وعصر ما بين عينيه بأصابعه، وقد حل في الفضاء جسد الأنثى، لم يكن جسدها، وهو يغمغم... تاها إلى الوراء وأمسكت أمواج نهر النيل بناظريهما، وعندما تلاقت أعينهما ثانية انثنت برأسها نحو الأرض همست تقول بالإنجليزية:

- At the end of the night my chest throbbed, my body collapsed, I reached the orgasm, I did not make an effort...

صمت ملجوما من الدهشة، غير متأكدا مما يسمعه، تجاهل على نفسه بقسوة أن يطلب منها أن تعيد ما قالته لتوها، أذا ما انطوي حلمها على رجل ما قام على مضاجعتها، وهل كان وجهه واضحا، ود أن يسألها إذا ما كان هو رفيق حلمها، لكنه اكتفي بعينيه الذي اللتان ضاقتا وهو ينخني ناحيتها، وقد اتسعت إذناه كي يتأكد

مما تسرده عليه (منقبة) من الصعيد صادفها في مدينة المنيا منذ سنوات قليلة، غير مصدقا، يسمعها تستطرد:

- not only one,

وحركت إصبعين معا، وقالت بالإنجليزية:

- twice.

تراجع إلى الوراء وقال بأسي:

... دعيني أحكي لك عن الملاك التي أطلقت إلي جدائل شعرها من النافذة، وهي تخطو الخامسة عشر، وتذُوقت العشق في حروف خطاباتها المكتوبة على صفحات ملونة بألوان قزح، تبث تباريح الهوي، ولما سألتها في حدائق الحرم الجامعي بقصر الزعفرانة، أن تنعم عليَّ بطلة على نهديها البكرين، فكرت طويلا ومن حيث لا احتسب تراجعت لتتوراي بين فرعين لأشجار الزعفران، وفكت أَزْرارَ بلوزتها العلوية وعيناها تتوهجان بنور سماوي، وفتحت طرفيها جانبا، لتكشف لي عن ملاكين ورديين ممتنعان عن اللمس، يطلان علي من عند الله بالسكينة والهدوء والمتعة، والعشق الإلهي... فجثوت على قدمي أتعبدها والشمس تلقي على بشرتها الوردية وهج الذهب...

- وأين ذهب ذاك الملاك.

- وشي بنا دَنِيء، تافِه، خَسِيسٌ.

حل الصمت طويلا، قام يدور في الأنحاء ليترك لها فسحة من الحرية مع دموعها المنهمرة، وفي كل مرة كان يقترب من طاولتهما، كان يعود مبتعدا وهو يقاوم الرغبة في التخفيف عنها... فكر... ما هي أصول اللعبة؟ ولماذا تشبهين الأميرة البستونية... أينبغي أن يُضَحى بك؟ مثلما فعل فراعنة مصر القديمة....

ألقي بجسده على المقعد ومد أنامله يمسح دموعها وهو يقول لها خففي عنك... كل هذا الإنسان....

- ما أسوأ هذا النوع من البشر.

مسحت دموعها، وعادت تسأله:

- وما اسم هذا الملاك؟

- أي ملاك؟

الملاك الذي وشي به السيد الخسيس.

- دعيني أطلق عليها اسم "آنا كارنينا"

- واو...

- المرأة التي خسرت حبيبها وفضلت السلطة.

قالت: تستحق أن يفرد لك عالم وحده... قال لكن حظي متعثر مع النساء... قالت النساء هن الخاسرات... هل تنوى أن تقعي في حبي... تناثرت ضحكتها على صفحة الماء... وعندما تقافزت على مقعد الخيزران طارت جدائل الليلك على سطح النهر... هل أستطيع أن ألمسه... ابتسامتها الهادئة دعوة داخل إطار من المودة... وقف خلفها ومد كفه يربت على شعرها، يمسده من قمة الرأس حتى الردف واستكان للحظات هناك ثم تراجع باحترام... وهو يمجد كل ما يمكن أن يخص جمال النساء...

* * * *

ورقة أخيرة...

منتصف الليل آن لها أن تعود إلى مستقر البعثة... غادرا بسيارته المعادي برفقة كورنيش النيل، ثم انثني يعبر النيل عبر الطريق الدائرى، وعلى المقعد المجاور حورية استغرقته وقتا طويلا كى يتمكن من جعلها تغادر كهفها المختفي في أغوار الظلال...

والليل يقترب من منتصفه خلفت السيارة وراءها الطريق الدائري وانعطفت جنوبا باتجاه أهرام سقارة، حيث امتد الطريق الأسفلتي الموازي لترعة المريوطية أمامهما عريضا متسعا ساطعا بشلالات من أضواء مصابيح الطريق، تكلله أشجار الكافور والزنزلخت الضخمة، وبجواره جلست الفتاة البستونية ذات النقاب البيزنطي تتقافز بالحياة تاركة شعرها يلهو عبر نافذ السيارة وحيدا في فضاء خلا من أثار البشر.

* * * *

توالت ليال يعبران معا ذاك الطريق الأسطورى المجلل هامته قوس من أضواء قزح، ذات ليلة فتحت سقف السيارة العلوي وشرعت ترقص على أنغام الراديو، ولم تكن المرة الأخيرة... ففي كل ليلة كانت تطلب منه التوقف، حيث يخلو الطريق كلية من السيارات والمارة، تغادر السيارة لتمارس الرقص على الطريق الأسفلتي، وهو يتبعها على بعد خطوات بالسيارة... ينظر إليها بدهشة، فتاة ثلاثينية كانت تختفي

كليـة داخـل النقـاب تتحـول في ملابسـها الأسـبور، وحـذاء ذو الكعـب العـالي، وحقيبتهـا الصـغيرة، إلى امـرأة مـن عصر السبعينيات، قالت:

أنت الذي دفعتني إلى التمرد..

- أيـوة... تسـخرين مـني أم تبحثـين عـن كـبش فـداء لحريتك.

- أوكي... تغمـم... لـم يبـق سـوي أسـبوع وأعـود إلى مدينـة القـرود... أسـتوب تـنزل وهي تـدعوه كي يتبعهـا، تجلـس عـلى غطاء السيارة الأمامي وتسأله برعونة:

- ايـن نبيـذك الأحمـر الـذي دعـوتني إليـه، دعـني اسـتكمل سدادا ديني.

قبـل أن يـأتي مـن تـابلوه السـيارة بزجاجـة النبيـذ وكأسـين، تـدعوه إلى الانتظـار، وتعـود إلى السـيارة، وتـدير جهـاز التسـجيل عـلى إحـدى أغـاني الثمانينيـات... يصـب كأسـين مـن النبيـذ الأحمـر واللحـن يسـتغرقه دون أن ينتبـه إلى كلماتـه... قبـل أن تضـع فوهـة الكـأس بـين شـفتيها يمسـك بيـدها، يجـذب انتباهها، يسـألها لمـاذا هـو؟ قالـت إنهـا سـبق وأخبرتـه أنـه مـن دفعهـا إلي التمـرد، مـن دفعهـا إلى العِصْـيان... ولكنهـا توقفـت قبـل أن تسـأله بجديـة وحـزن شـفيف هـل تحترمـني... ألـيس صحيحا أنك تحترمني؟

- احترمـك! لـو أن ظلمـة الحيـاة توقفـت فقـط عـلى تلـك السـاعات الـتي أمضـيتها معـك لاسـتحقت أن أتقبلهـا بامتنـان،

وأتقبل مصيري عندما تعودين إلي مدينة القرود وتتركيني وحيدا...

احترمك! سأعود أنا إلى
مدن الخيانة
والاستحلال، وساعتها
I wanna know what love is,
I want you to show me,
ستكون اللحظات التي أمضيتها معك
روزنامة للفخر، بأن قدري أتاح لي وميزني أنا فقط
من بين آلاف البلهاء وعشرات آلاف القرود أن ألتقي بك، التقي في تلك الحياة البغيضة بفتاة تخفي أكسير الحياة داخل نقاب من الظلام الكثيف.

كانت أناملها تعبث بأزرار بلوزتها وهي تنظر في عينيه، تنبه فجأة على مقطع الأغنية التي يعشقها... مد أنامله وطلب منها التوقف.

- لماذا؟ ألا يرضيك ان نكون وحيدين، أتريد أن أكشف لك عنه في ميدان التحرير؟

ضحك بصخب، وعاد يجمع كفيها معا:

- قبل أن تهبي نهديك، تعرفي على جسدك أولا..

بانت على وجهها الحيرة... امسك بيدها وهتف بها: تعال...

جذبها ناحية الحقول، ووقف يقول... انظري... هنا حقول القمح، وهناك بساتين البرتقال، وفي الأفق غابات الأرز، وفي الهضاب أجمات الياسمين... وفي الأعال جبال الثلج... تعالي... جذبها من يديها عابرا الحقول، ونثرها بين

السحاب فحلقت منشية وقد أشرعت نهديها إلى زخات توالت على حين فجأة من مطر منهمر...

أضيئ الطريق بأضواء باهرة وتحول العشب إلى مساحات مترامية من مراعي الخضرة وأسيجة من زهور الليمون وتحولت أشجار الكافور والزنزلخت لأبراج من قصور وقلاع....

هزت رأسها كانت تطير سعيدة، وقالت بصخب: أوكي....

- انتظري دعيني أعلن لك نخبا، للأميرة البستونية المسحورة داخل ظلام الغابات الملعونة..

عارية النهدين تناثرت إلى أمواج من ظهور السوسن على سطح النهر... تقدمت الملكة لترشف نبيذها.

رشف النبيذ طويلا من بين ثغرها القرمزي، لاكه ببطء على صفحة النهدين تذوقهما معا... طعم النبيذ الأحمر اللاذع، ونشوة الخمر... مخلوطين ببهاء لحم الشفاه الثخين..

انطلقت السيارة وقد تحولت إلى مركبة فرعونية تمتطى شهاب يصعد السماء..

* * * *

اليوم يستغرقه شعور الأسى، هذا هو يومها الأخير في القاهرة، قبل أن ترحل عائدة إلي مدينة بلا رجال، قالت هذا

يـومي الأخـير معـك.. لا أريـد العـودة لمدينـة القـرود... تنهـدت وقالت بأسي لو يأخذها بعيدا...

مـد يـده يمسـد وجههـا... جـدائلها... يـزيح عـن ظهرهـا انفعالاتـه، وسـؤال يطـرق ذهنـه ومـاذا بعـد؟ تنظـر بـدلال... يتمـتم... لـو كنـت أصـغر لخطفتـك إلى حيـث تقـيم حوريـات الجنـة؛ جزيـرة عـلى نهـر، سـحابة في سـماء... غـدير في غابـة... مـا هى أصـول اللعبـة؟ ولمـاذا تشـبهين البنـت البسـتونية... أينبغى أن يُضَحى بك؟ مثلما فعل فراعنة مصر القديمة....

قالـت أنـت لا تعـرف... أجمـل ملابسي- الأحمـر الـديناري، وأجمـل خلاخـيلي قطـع المـاس والزمـرد، أمـا أصـول اللعبـة فـهى السـأم، فمـا هـو برجـك... تـرابى أنـت وأنـا ناريـة، وكلاهمـا لا يلتقيان...

انتفضـت فجـأة وقالـت لا يبـق سـوى أن نعانـد القـدر... أتـركنى أقـود بـدلا منـك؟ تبـادلا مقعـديهما... وقبـل أن تسـتقيم في مقعـد القيـادة القـت بجـدائل شـعرها ناحيـة الطريـق تاركـة عنقها الأيمن يكشف عن نفسه.

انطلقـت مسرـعة في الطريـق الخـالي إلا مـن شـلالات الضـوء، يتمـدد أمامهمـا متسـعا نحـو سـماء الأبديـة... تجاهـل سرعتهـا الجنونيـة... التفـت نحـوه وقالـت "ألا تريـد بقيـة دينك"

كـان تـدعوه صراحـة للـثم عنقهـا وهي لا تـزال تقـود السـيارة، لاَمِـس بذؤابـة لسـانه صـفحة العنـق، شـعر بقشـعريرة تجتـاح جسـدها، طـاف بـه يرطبـه، فانطلقـت تضـحك قبـل أن يقـبض بـأنيابه عـلى الـودج، لـم تسـطع السـيطرة عـلى السـيارة، وقد غامت عينيها وارتقت برأسها إلي الخلف؟

انتبهي للطريق... اتركي لي القيادة...

رغـم آنهـا توقفـت بالسـيارة جانبـا هـزت رأسـها نفيـا، غادرتهـا واعتلـت المقدمـة وعـلى أنغـام الكاسـيت رقصـت بـلا توقـف... قبـل أن نعـود ثانيـة للطريـق، مـرة ثانيـة أصرت عـلى القيـادة... وبعـد أن تركـت الأشـياء تستسـلم لعالمهـا البـدائي، تسـاءلت بعيـون غائمـة: إذا مـا كـان يريـد شـيئا مـن هـذا العـالم؟"... هـز كتفيـه برعونـة... وقـال مـا الـذي ينتظـره مـثلى من عالم بائس مثله... لقد اكتفيت.

لمحهـا تنثـني عائـدة للمقـود، وتنطلـق كومضـة بـرق، والسـيارة تـئن تحـت قـدميها، همسـت تحـدث نفسـها وهي كـذلك لا تـود العـودة لمدينـة القـرود... وإنهـا سـوف تمضي معه إلى الأبد... ودعته كي يتغلبا على لعبة القدر....

كانـت السـيارة ترتفـع بهمـا عـلى شـهاب يصـعد سـماء رحبـة، ثـم لـم يلبـث أن حـل المـاء ليغمـر كـل شيء... سـاقان يرتعـدان مـن البـرودة، ونهـدان وسـاعدان وجسـد لآلهـة، وشـلالات مـن ليل حالك يطفو فوق صمت مطبق.

فـتح عينـه عـلى قـاع نهـر يعـج بصـبايا يمـرحن ويرقصـن في الأنحـاء، والسـاحرة العجـوز تخـور كبقـرة حـبلى... قـال لهـا مـا الـذي يفعلـه شـيخ مـثلي بيـنهن. قالـت وهـل بلغـت مـن العمـر عتيـا مثلمـا بلـغ عـرش المـاء... أشـارت للممـددة بـين يديـه يخـيم عليهـا مـلاك المـوت... أعطتـك حياتهـا فترفـق بهـا... قـال... أعذريني فما كنت ولا كان الزمان أهلا لها...

طرقـت البقـرة المقدسـة بحافرهـا الـذهبي القـاع الطمـيي، وسـاطت المـاء بـذيلها الفضي، فـامتلأ النهـر بـأوراق الكوتشـينة؛ الـروا الملـكي العشـرة الدينارية والسـبعة الكـاروه، وملكـة القلـوب، الترفـل، ورقـة الـذيتون، البوسـتوني، الـةاك خـادم الملـك، شـاهدها تسـتدير راحلـة وهى تخـور تنـاجى الغـروب، هكذا يتمكن الصباح من الحضور...

* * * *

مستعمرة الجُذَامِ

هــو الحلــم الــذي لــم يفارقهــا منــذ أن آتاهــا نبــأ الحــادث المــروع، تتجرعــه وســط مشــاعر الأسي والإحبــاط، وعبارتهــا الذهبيــة الــتي تكونــت في عقلهــا مــن قراءتهــا لروايــات فلــوبير، وبلزاك ومسرحيات القرن العشرين:

"هــذا الشــاب الوســيم صــاحب الشخصــية الآسرة، يجــب أن يكون زوجي"...

وكــان قــد جعــل مــن العــالم الــروسي إيفــان بــافلوف أســتاذه الملهــم، ومــن أبحاثــه الرائــدة حــول فســيولوجية الجهــاز العصــبي عنــد الكــلاب، وعمــل نصــفي الكــرة المخيــة، مرشــدا عصــبيا لــه في محاولتيــه كي يكــون امتــدادا لأبحــاث بــافلوف شخصــيا، وفي الحصــول عــلى درجــة الــدكتوراه مــن موســكو، وكــان الباحــث الشــاب المســكين وبســبب رغبتــه في التعــين بدرجــة معيــد في الجامعــة الوطنيــة، قــد ســبق وقــايض

معتقداتـه الماركسـية وتخلـص منهـا في مكـان مـا مظلـم، لقـاء أن يتـاح لـه شـق الطريـق نحـو مسـتقبل لامـع، فالماركسي- السـابق، عـادة مـا يكـون مثقفـا لعينـا، يملـك كـل الأسـباب المؤهلـة للصـعود؛ مثـل الـذكاء اللامـع، وامـتلاك ثقافـة موسـوعية حديثـة وقديمـة، وإمكانيـة ذات مفعـول أكيـد في اغتصـاب كـل أنـواع اللغـات المـزورة، وانتهاكهـا، ومـن ثـم دمجهـا جميعـا في لغـة نفعيـة ناجعـة في تحقيـق الأهـداف المختلفـة طبقـا لطلـب الزبـون، أو السـيد صـاحب الفـرح. وقـد حسـم لهـا هـذا الموقـف الأخـير الـذي اتخـذه كـل شيء، مـا جعلهـا تـردد بتصـميم بنـات الأحياء الشعبية:

"هـذا الشـاب الوسـيم صـاحب الشخصـية الآسرة، يجـب أن يكون زوجي"...

"اللعنـة" ... هـذه الكلمـة الـتي تحمـل في طياتهـا فثـاء الشـيطان، دفعـت الفتـاة الشـابة بـإصرار عـلى أن تـربط مصـيرها بمصـيره، فمعـه تسـتطيع النجـاة مـن الغمـوض الـذي يحـيط بمصـير الأحيـاء الفقـيرة مـن المـدن والقـري والدسـاكر الصـغيرة، وكي لا تـترك فرصـة ثمينـة تفوتهـا، وينـتهي بهـا الأمـر للنظـر بحسرة إلى حلمهـا بركـوب قطـار الأحـلام الصـاعد إلى جمـال الـدنيا ومباهجهـا، ذهبـت إلى عَرَّافِتهـا العجـوز الـتي تسـكن الأطـراف السـفلي مـن مسـتنقعات السرخس، وطلبـت منهـا أن تعطيهـا وصـفات توقـع فتاهـا في حبائلهـا، فأعطتهـا مـا تريـد وترغـب وأفاضـت بمـا يزيـد عـن الحاجـة، حـتى أنهـا جعلـت

الرجـال لا يسـتطيعون تجاهـل جاذبيتهـا الآسرة حـتي ولوكـانوا بصحبة زوجاتهن...

لكنهـا بقـت لأمـد بعيـد وفيـة لـه ولأحلامهـا، لا تـرى سـواه، حـتي تمكـن (أو ربمـا دفعتـه، أو هيـأت لـه السـبيل)، مـن الإيقـاع بهـا، وجمـع دمهـا الـوردي، ليقدمـه لهـا عـلى ورق كليـنكس، في شرفـة متواريـة لأحـد أسـاتذة علـم وظـائف الأعضـاء المهـان، ولـم يكـن لـه أن يفلـت مـن المصـير الـذي حاكتـه لـه بمهـارة، مسـتخدمة رقيـات ووصـفات السـحر الـتي جمعتهـا مـن سـاكني المسـتنقعات، لكنهـا وللأسـف البـالغ الأسي، أفاقـت يومـا لتجـده وقـد خـذلها، بإصـابة في حـادث مأسـاوي، نجـم عـن انهيـار البنايـة الحديثـة ذات الطوابـق السـبعة عشرـة، والـتي كانت تضم شقة عرسهما، ما أقعده عن الحركة...

* * * *

هـذه الليلـة شـق عليهـا النـوم وبلـغ منهـا اليـأس مبلغـه، وبعـد أن تجرعـت كـأس العجـز حـتى الثمالـة، وأيقنـت أن المسـاندة الـتي توقعتهـا مـن جماعـات الفـئران الصـديقة، تحولـت لنتـائج وخيمـة بعـد أن شرعـوا يقتـاتون عـلى أجـزاء مـن مخهـا الهـلامي، السـاكن في أجـزاء متفرقـة مـن الـدهن اللذيـذ المشرـب بـالعطر الفـواح، لعقـل تشـكلت ثناياه مـن ذكـاء لامـع، وأحـلام إنسـانية ونسـائية مشرـوعة، لتكتشـف في النهايـة أن فئرانهـا الطيبـون الـذين اقتنـتهم عـن محبـة، تحولـوا إلى جرابيـع وحشـية تتقاتـل داخـل جمجمتهـا القوقازيـة، حـول قضـايا

وأسئلة الوجود المشرئب بلعنة مُشَكَلةُ من متاهات بلا بدايات أو نهايات طرفية...

في الصباح استيقظت السيدة "دنيا زاد" وقد عزمت على أن تروض الجرذان والجرابيع التي سبق وأن استحضرتها من معامل زوجها الباحث في علوم الفسيولوجي، وهي بعد صغيرة بيضاء مستأنسة، كي ترشدها من جهة، وتستدل منهم من جهة أخري على طرق مغادرة بادية التصحر التي كانت تأكل عقلها بعزم يصعب مواجهته، وهو شأن لم يسبق لعلم الاجتماع دراسته من قبل.

ليال طويلة أمضتها في معرفة مسالك القراصنة في الهروب من السفن الموشكة على الغرق... وطرق الشطار الذين يواظبون على صلاة الفروض الخمسة وبذل الذكاة في مواقيتها، والهتاف بصيحة "الله أكبر" وهم ينقضون بسيوفهم الباترة على أعناق السادرين خبا على ظهور الجمال الراحلة في قوافل الحجيج، وهي في طريقها إلى بيت الله الحرام.

كانت تنهك نفسها في التباحث مع مؤلفيها، قبل أن تعود لإجراء تجاربها المعملية الشاقة، فتصنع بيت معقد المسالك، ومتاهات قوطية، كهوف جبلية تصعد عاليا قبل أن تعاود الهبوط لأعماق سحيقة، يستحيل لمن يدخلها أن يجد طرق للخروج... تراجع التراجيديات الإغريقية التي كتبت ووصفت بدقة العوالم السفلية التي يحكمها آلهة

الموت والانتقام، كي تفهم كيف نجح في اختراقها أنصاف آلهة أسطورية، وأبطال تراجيديون، تمكنوا من العودة متوجين بأكاليل الغار لقصور دافئة ونساء وفية محبة...

لكن عالم الأساطير هو الجريمة المؤكدة التي يمكن آن تدفع بربان سفينة في ربيع رجولته، أن ينتظر اللحظة الأخيرة التي تغوص فيها سفينته إلى القاع، دون أن يغير قراره بالانتحار على متنها... فما البال ونحن لم نعلم عن أحد استطاع أن يغادر خيم البادية إلى الحضر- دون آن يحشر- في عقله المصاب بالجفاف، ولم يبق مرسوما على صفحاته سوي أشعار الجاهلية التي علقت قديما على أستار الكعبة المكرمة. خيمة مثقلة بالرمال والسحالي وجرابيع وثعابين الأصلة...

* * * *

هذا الصباح تناولت دنيا زاد قرصين ميتادول وأطلقت سراح فئرانها من عقلها المضنى بالقنوط، توقفت عن التفكير، وقررت أن تشرع في العمل، جمعت شهادة ميلادها وإجازتها الدراسية، والأوراق التي تعدد مواهبها، وتلك المزورة التي تشير لكرم محتدها الذي يعود بها إلى النسب الشريفوالذي حصلت عليه من المؤسسة العامة لأشراف لقاء خمسين دولار ، وثيقة عقد قرانها التي فعلت من أجل امتلاكها الكثير حتى يعقد بها الفتى الحاصل على شهادة دكتوراه مضروبة، من جامعة تنتمي إلى العصر- السوفيتي

الغابر، والذي كان ينم مستقبله وهو بعد في مطلع شبابه عن بدايات صاعدة ونهايات واعدة، تحملهما معا إلى تخوم السدة العليا، حيث تعيش النخبة حول ضريح السلطة، التي أحيطت منذ زمن قديم بالصمت الأبدي عقب الاغتيالات الأخير، ليحل بها عتمة مريبة من الشكوك.

لكن الأعمال عادت لسيرتها الطبيعية بعد عودة الأضواء لقصورها الفاخرة المحمية، مع صعود رجال مرموقين من أبناء القري المحاطة بالمستنقعات، وشرعت تأكل أطرافها بمثابرة وعزيمة لا تفتر، يصعد منها في مواقيت ولأسباب مجهولة حشد من الديناصورات الضخمة، في موكب زاحف، ترتاد طرقات أحيائها وتتسكع في أرجائها، أو تهاجمها بمقدمات من جحافل القوارض الوحشية، بينما تأتى الظهيرة بسحب من ضباب خانق، حاملا بين طياته موجات من الغبار والهوام والحشرات، تحجب معها شمس الشتاء البارد والصيف القائظ.

هذا الصباح لم تكن المحاولة الأولى التي سعت فيها السيدة الشابة إلى الصعود، فكثيرا هي الجهود المضنية التي بذلتها كي يبدى أحد الرجال المرموقين القاطنين حول السدة العليا للسيد الرئيس الذي حل به الهرم، بعد أن جاوز عمره المائة بعقود استعداده لاستقبالها...

مواعيد مسبقة ووعود منحها معارف يعملون في الدوائر الأمنية، تصعد وهي تمنى نفسها بأن تحصل على مبتغاها، إلا

أن محاولاتها كانت تبوء دائما بالفشل، وتنتهي عادة بحصولها على إجابة مقتضبة من رجال درك آليين قائمين على البوابات مثل:

- نَأَسَّفَ، أسمك غير وارد بقائمة الزهور المسموح باستقبالها". أو: "عذرا السيد الرئيس يستقبل وفد من فصيلة "الدهنيات".

أو: " عذرا، السيد الرئيس متوعك لتأخر صعود الشمس هذا الصباح، وسوف يستقبلك قريبا ".

أو: "سامحينا رجاء، السيد الرئيس يحضر مع الملوك والرؤساء مؤتمره الخامس والعشرون بعد المائة، للمدافعين عن الحقوق القومية للعرب الأوابد المشروعة، في فلسطين والجولان وسينا وشرق الأردن وصحراء البادية، وبلاد الأنبار والربع الخالي، بحضور السيد ناتنياهو الرابع عشر والذي سيقام في رحاب الهيكل اليهودي في القدس.

أو: "عفوا ، السيد الكبير وعائلته يقضون إجازتهم السنوية في المنتج الصحي، والذي يقيمه المدافعين عن الحقوق العديدة التي ضاعت، تحت إشراف محور الممانعة... رجاء أتركى أسمك وعنوانك.

وهي تفعل، وتتوسم الدقة، فترفق بعنوانها أرقام هواتف وخرائط، تدل على الطرق العديدة التي تستدل منها على

عنوانها الواقع في متاهات الأحياء الموغلة في عوالم الفقر والتعاسة.

تذكر السيدة الشابة "دنيا زاد" إنها في كل مرة، أعيدت لها طلباتها الرسمية والعرائض التي كتبتها، موشاه بكل أطايب الابتهاج بجمال الحياة التي أسبغها طويلي العمر الموعودين بجهنم؛ خلفاء، سلاطين، أمراء، رؤساء كبار، على قرانا، مزيلة بعبارة

" صَفَحَا ... لم يستدل على العنوان".

برغم ضيق العبارة واتساع المعني، كانت تصاب بصدمة موحشة، لوعة يأس قاتل، تجرى تبحث عن أصدقائها في مفكراتها القديمة، تتلو عليهم كلمات دافئة ضَمَخَتْ بحزنها، ووحدتها التي تعانى منها بعد الإصابة التي لحقت بالشاب اللامع الذي أحبوه جميعا، ما يجعل الرجال يندفعون إلى خزنات الكتب القديمة، مستدلين بالعصور الوسطي لشهامة وسلوك فرسان نبلاء أمثال الملك آرثر صاحب المائدة المستديرة، وصديقه الفارس لانسلوت، الذي دافع عن مملكة قائده وصديقه، دون أن يمنعه ذلك من الاستيلاء على زوجته الملكة "جينيفر"، وخيانته (على عادة الفرنسيين)، هذا هو التاريخ يكتب، هناك بطرس الأكبر مشيد روسيا الحديثة، الذي تركها بين يدي ابنه المعتوه، فضلا عن "ماكسميليان روبسبير"، سفاح الثورة الفرنسية، وهلم جرا، واحيانا محبي عرابي أو عبد الناصر اللذان لم يكونا

يفقهـا شيء في العلـوم العسـكرية، فكيـف بهزيمـة جـنرالات الإمبراطوريـة الـتي لا تغيـب عنهـا الشـمس، أو جـيش الأُسْـطورة الوهميـة الـذي لا ينـام ويصـحو إلا وهـو غـارق في دراسـتها، والتـدريب عليهـا وممارسـة اسـتراتيجياتها عـلى أرض الواقـع، مـدعما بغالبيـة الأجنـاس والأعـراق، وذلـك بفضـل مـن الـرب (يهوه) الذي اختارهم من كل شعوب وأعراق العالم سادة.

الخـدمات الـتي كانـت ترجـو الحصـول عليهـا كانـت تـتلاشى سريعـا، فالأصـدقاء يقـدمون خـدماتهم مـن سـوق تبـور تجارتـه سريعا..

* * * *

... ولكن غدا يوم جديد...

عبـارة تـدفعها بـأن تسـعى مـع كـل صـباح بـاكر كي تحـاول الصـعود مـن جديـد... وعـلى ثغرهـا ابتسـامة مشرقة تجعلهـم يتقبلـون عودتهـا، رغـم الدهشـة والإجابـات المصـاغة بلغـة عربية فصحية ودالة، والتي لا تتغير...

.... " صَفَحَا... لم يستدل على العنوان"...

ربمـا لا يعـدو الأمـر سـوى خطـأ غـير مـدرك، ذلـك أن العنـوانين في قريـة لا تتجـاوز أرجاءهـا مسـيرة طلعـة نصـف نهـار، ربمـا صـار يسـتدل عليهـا بواسـطة علامـات أخـرى غـير تلـك المتداولـة، أو أن لغـة الخطـاب السرـدي مسـتغرقة في

الشكلانية التي ابتدعها الروس والتشيكيين، أو الديوانية المملوكية، أو أي شيء من هذا القبيل، يخطر على بال مثقف ضحي بعمره في الانكباب على القراءة، وحمل أحلام الفقراء والشباب والأطفال أمانة في عنقه، وهو ما لم يعد يتلاءم ولغة العصر- التي تجاوزت الحداثة، إلى ما بعدها، مثل مدينة ملاهي رولان بارت، وميشيل فوكو، وأخرين، وخلفائهم...

هذا هو الحوار الذي كان كثيرا ما يدور بينهما إبان صحوته، فلم يعد للشرف قيمة، أما المعتقدات السريالية التي تَغني بها بعض المرضي والموتورين نفسيا عن الثورة، أو العدالة التي حولها كهنة ورجال السيد الرئيس إلى مقايضة بين احتمال مسالخها البشرية، أو القبول بأن تكون طعاما للقوارض والزواحف والمفصليات القديمة... فالنجاة النجاة... والنجاة لها طريق وحيد... البحث عن طريق للصعود إلى السدة العليا التي تتوسط القري ولا يغيب عنها النور...

وهو الأمر الذي دفعها أن تستغنى نهائيا عن الكتابة، مع قرار بعدم الاستسلام للواقع المعاش، بعزيمة لا تفتر اكتسبتها من زوجها الراقد في فراش مرضه المزمن، عاجزا على الحركة، وهي القائمة على خدمته، لا تمل من تطبيبه، والعناية بأمراضه، وإزالة قاذوراته من على فراشهما الممزق المتهالك، والذي كان لا يتوقف أيام كان عفيا، عن أن يذكرها بنصيحته التي قالها وهى تحاول أن تتغنج قليلا قبل

المضاجعة، في الشرفة المتوارية لأستاذه الذي تركها له لحين عودته من رحلته للنمسا:

"الزمن يمضي- دون أن ندركه، والأيام تُسرق من بين ظهرانينا، ونحن غير منتبهين لها، وأن بكارتك لا تستدعى كل هذا الزمن الضائع، ولو علم مارسيل بروست لأصيب بصدمة".

وافقته على الفور، وقامت على حث فتيات وثقن بها وبه، على التخلي عن بكارتهن لمن أحببن بلا عناء... مقدمة لهن حفلات للتعارف، وأماكن للعشق، وأنفاس من حشيش معتبر يوقظ من ماتت أحلامه، وأفيون يصعب مقاومته لمن لم تطرق أحشائهن المتع الغائبة، وحبوب هلوسات تجعل الجميع يعش ما حلم به طوال سنوات المراهقة. مع خدمات ما بعد التعارف، مثل فراش للمضاجعة، وأطباء متخصصون في الإجهاض، وغيرهم متخصصون في استعادة غشاء البكارة، متتبعة بعزيمة لا تفتر، نصيحته التي أضاف إليها (حتى شقيقاتك!).

لهذا لم تصدم أو يغشى- عليها، أو هكذا تقول عندما علمت إنه جعل منها طريقه إلى صديقاتها، ورفيقات كفاح مشكوك في أمره، ولا بأس أثناء فترات الاستراحة، من وضع أخت أو اثنتين على لائحة الانتظار في فراش الانتهاك، المنظم لتقاليد وقيم برجوازية ما بعد الحداثة...

المفاجأة أو الدهشة؛ مصطلحات خاوية من المعنى، عندما وجدته على عرش من النساء أستوى، صدقت تبريراته

المحترمة التي تستحق التقدير، المُقْنعة بما يصعب عليها دحضه، مثل فحولته بين النساء، وضعف أنوثتها، والمعنى التفكيكي للأخلاق البرجوازية الرثة، وبنوية الانكفاء الشرطي للقوة المعنوية للعباقرة من الرجال الأذكياء، واستراتيجيات ما بعد الحداثة التي تضمنت دون إدراك، اعتراف بالمثلية الدولية النابعة من عصر العولمة التعاكسية، المتضمنة عمليات الصعود الكيفي، وحتى يغفر لها زلاتها ويتغاضى عما فعلته من معاصي، فتحت له هو الجالس على فراش من العتمة الطريق إلى صديقاتها وطالباته الصغيرات، اللائي تقبلن عطاياهما الحسية بعرفان مكلل بطقوس الحمد والشكر.. ثم جلست هي على باب المخدع تحرس متعه المقدسة...

* * * *

هل آن وقت الحساب... لكنها لم تفعل، لم تحاول مرة التعبير عن استيائها، أو سخطها من تصرفاته المشينة، والتي سببت لها أذى نفسيا عميق، كانت تكتفي وهي تسخر من ادعاءها بالبطولة، بالقول بحكمة:

- "كنت أعول عليك فها أنا أُعَاقبْ بك".

كانت تود لو يفسر لها تاريخ الأحاجي التي بشر بها بيقين عالم انتظراه كأسطورة المهدي المنتظر فخرج لها المسيح الدجال... تقف غاضبة، تهمس في أذنيه وبين يدها وعاء من

الماء الملغى تهدده بأن تلقيه عليه، لكنها لا تفعل وتستطرد إن هذا الزمن لم يعد زمنيهما...

* * * *

نصيحته تلك عن الزمن المراق دفعتها لاستخدام وسائل أخرى، مثل محاولة لفت انتباه الرجال المرموقين من أصحاب البلات الأنيقة ومرتدي العقال، أثناء مواكب السيد كبير البلاد، التي تقام على شرف زيارته الموسمية لمقبرة القرية في الموالد والآعياد، حيث تتم مراسيم الابتهال بالدعاء طلبا للرحمة لمن رحلوا، أو الذين تم اغتيالهم معنويا (أو ماديا لا يهم)، مدعية أن هناك ما يخولها الولوج إلى سرادقات الدعاء، اعتماد على ما تحفظه عن ظهر قلب من ابتهالات الصوفية، والمدعوة باسم "الابتهال إلى الرب"، ثم عزمت تقديم فن خاص بالابتهال للسيد ذاته، عسى- أن أحد ينتبه لوجودها المَوْصُومٌ بالتلاشي.

رغم ذلك لم يثنى الفشل عزيمتها، فقد كانت قبل كل شيء تنتمي لهذا النوع من الإناث اللائي لا يستسلمن بسهولة، تطاردها صفعات وركلات طفولة بائسة تاهت في غياهب الذاكرة. ولهذا وفي كل مرة تصعد فيها الطريق الواصل بين منزلها الرث (الكائن على الأطراف المتاخمة للمستنقعات)، إلى السدة العليا، وضعت نصب عينيها الأمل الذي أطلقه مؤخرا في الأنحاء القريبة من النخبة الأستاذ

الـدكتور "النابغـة" الـذي كـان أيـام مراهقتـه يتمـيز بـذكاء لا يضارع، وعبقرية مأمول منها أن يصير "طه حسين عصره"..

لهـذا أطلقـت بمقـت مـن عقلهـا سراح فـئران زوجهـا الغنـدور المعمليـة، وشرعـت تقـتلهم واحـدا بعـد الآخـر، ثـم عكفـت عـلى دراسـة تـاريخ الـدكتور، وعنـاوين آدابـه وتأدبـه... والـذي يـذكر الجميـع كيـف أنـه بعـدما عـاد مـن الخـارج، وشـاهد المصـير الـذي سـتؤول إليـه الحيـاة في القـري الخربـة لا محالـة، عـزم عـلى تغيـير مصـير العـالم الـذي أحبـه في صـباه، وتغـنى بأمجـاده القديمـة، وهـو بعـد فـتى في فـرق الكشـافة ومنظمـة الشـباب القـومي أو الثـوري، ووضـع عـلى بـاب منزلـه لافتـة كتـب عليهـا مؤهلاتـه الـتي حصـل عليهـا مـن جامعـات أمريكيـة تنـتهج السريـة في تدريس مناهجها المتنوعة:

"شـــهادات مخصوصـــة في تغـــير ســـلوكيات الكائنـــات الدنيا"...

"أبحاث ناجعة في تسويف الضمائر اللغوية"...

"طـرق حديثـة في مضـمار تجـارة ونخاسـة النفـوس البشريـة في أسواق النفط الشرق أوسطية"

على أن درة أعماله كان وصفاته السرية حول رسالتيه في:

"إحياء الموتى".

"الطـرق الحديثـة في قيـادة القطعـان للعـودة إلى مـراعي العبودية تحت راية الحرية".

وقد أضاف إنها طرق ناجعة ومجربة وموصوفة.

ولـم تمـض أيـام قليلـة حـتى دعي للقـاء رجـال السـيد الكبير، كي يعرض ما في جعبته من بضائع الحداثة المصورة.

ويعلـم الجميـع إنـه وللغرابـة أنـه منـذ صـعوده. الـذي أؤرخ بزمن صعود (التنويرين الجدد) لم ينزل...

* * * *

يـوم صـعد الـدكتور النابغـة إلى السـدة العليـا الـتي اكتنفهـا الظـلام، حمـل معـه قنينـة غريبـة أثـارت كثـيرا مـن التسـاؤلات المصـحوبة بالدهشـة، وسـط تهكـم الجميـع ونظـراتهم الوقحـة وتهـم بالخيانـة مـن أقرانـه وأبنـاء جلدتـه، أمضى- أيـام طويلـة في البهـو المعـتم، مـع كـل رجـال السـيد الـرئيس، يتـداولون ويتجـادلون في مناقشـات لقضـايا عميقـة؛ مثـل ازديـاد تآكـل حـواف القريـة، وتقـدم المسـتنقعات عـلى النـواحي والـدروب، وتحـول الحقـول إلى أراضي سـبخة، وهبـوط معـدلات الإنتـاج الـزراعي، في مقابـل ارتفـاع نسـب الخصـوبة، ومعـدلات اخـتلاط ميـاه الغـائط بميـاه الشرب، وهـو مـا قصر- الفـوارق الزمنيـة بـين ارتياد الزواحف والقوارض لطرقها الترابية وأزقتها.

في الـدوار الرئـاسي تلـقي مندهشـا ملفـات سريـة، بعضـها منقـول مـن شـبكة العنكبـوت؛ عـن تخلـف بعـض الزواحـف في المـرات الأخـيرة عـن العـودة للمسـتنقعات، وإشـاعات متـواترة عـن حـالات قـرآن بـين عـوانس مـن فصـيلة التـوت وصراصـير ناطقـة، وظهـور أطفـال بـروأس تتوقـف عـن النمـو بعـد خمـس

سنوات من ولادتهم، عند هذا المقطع بالذات توقف الدكتور عن القراءة، وسرح مفكرا بتمعن وعمق، وحوله رجال الرئيس ينتظرون ما سوف ينطق به...

- يجب البحث عن وجود حالات تزاوج بين سكان الأطراف والقاطنين قاع المستنقعات... هنا سيكون الخطر الكبير...

أعرب له رجال السيد عن قناعتهم بمخاوفه، وعلمهم بما يحدث في الأطراف، فهم بحكم طبيعة عملهم عالمون بكل صغيرة وكبيرة، وكل شاردة وواردة خاطرة ولافتة، فلديهم شبكة محمول على أحدث طراز، متصلة بشبكة الناتا والثريا والناسا، فضلا عن سرايا كلاب تم تدريبها بواسطة عملاء محترفين من أجهزة عالمية، فمثل هذه الأمور لا تترك للظروف، لكن الجميع لسوء الحظ وحظ المواطنين لديهم مشاكلهم أيضا، لذا طلبوه بشكل خاص كي يقدم المشورة بشأنها...

شكوا له استغراق السيد الكبير في نومه الأخير، والتي طالت لحد يثير القلق، بعد أن بلغت مسامعه نكات بذيئة من القاطنين من رعيته في الأطراف، ما جعله يسقط في لجة الحزن، فضلا عن إصابته بغصة أضجت مضاجعه، وتكسر القلوب الرهيفة...

ارتسمت على وجهه الأبيض الوسيم معالم الاستنكار؛ كيف للسيد الكبير أن تصيبه مشاعر بشرية، وهو الذي

تشكلت كينونته فيما وراء المعلوم... وتساءل باهتمام مبالغ فيه:

- "ألم يتم غسله بفوتونات فقدت كتلتها"؟

فتحوا أفواههم ببلاهة، فوتونات فقدت كتلتها! من أين أتيت بهذه الداتا؟ وإلى إي تخوم يصل علمك، لم يفهم أحد معنى سؤاله، لكنهم راجعوا ملفاتهم وأجابوا بإن سوف يخاطبون الجهات العلمية العالمية التي تداوم على متابعة صحته، ساعتها اطمأن وعاد الحديث لمجراه... سأل عن إشاعات موته، هزوا رؤوسهم باستياء، وأشاروا إنها القشة التي قصمت ظهر البعير، والأمر الذي أقلق السيد الكبير للغاية ويقلقنا جميعا، فربما كانت مؤامرة خفية من جهة القوارض أو جنس الزاحفة تمهد للاستيلاء على السدة العليا... لهذا ومنذ شهور طويلة نام حزينا، ولم يعودوا قادرين على إيقاظه، ورغم ذلك هم يمنعون عنه النظر والسمع، حتى لا يفيق فجأة من نومه الطويل غاضبا، ويتخذ إجراءات مشددة ضد الناقمين على سعادته...

أدار الأستاذ الدكتور النابغة وجهه بنظرة فاحصة، وهرش رأسه، وأضاف بثقة إنه حتى ولو كانت مؤهلات الرجل بلغت شأن لا غبار عليه، فهي لا تغني عن مواهبه وقدرته على الإبداع، واستطرد بلهجة العارف ببواطن الأمور وهو ما انعكس بالارتياح على وجوه المحيطين:

- "أن روح السيد الكبير تعاني من حصر- نفسي-، ناجم عن الملل الطويل لشخص يتوقع أن يحل به شر دون أن يحدث شيء، وهو مرض يصيب الآلهة عندما تعاني سكرات الموت... قالوا إنهم قدموا له المئات من النساء الصغيرات، لكنه صام عنهن...

قال ربما يريد الاعتكاف بانتظار علامات قادمة من السماء، لطقوس ميلاد دين جديد... ظهرت عليهم علامات عدم الفهم، فكر طويلا، ثم أنه طلب منهم على حياء أن يتركوه والسيد وحيدين... تبادلوا نظرات تشوبها انعدام الثقة والحذر... ففتح ذراعيه ينضو عنه ملابسه جميعا معلنا خضوعه المطلق للجميع، وأضاف بحكمة "أن الآلهة عندما تموت تصطفي أنبياء تبعث فيها الحياة من جديد، هذا هو سفر الخلود"...

حقا لقد أتى الدكتور النابغة "بالتائهة" فقد هز الكبار رؤوسهم الى نبتت على تيجانها شيبة الحكمة... وقاموا بتلكؤ يغادرون المعبد الكبير في صمت، وخلفهم الإتباع ينظرونه في إكبار وترقب... حتى الحرس الذين وقفوا خوفا من الغيلة والخداع، دفعهم إلى الخارج بلطف وهو يردد: "الثقة سبيل الخلاص".

علامة فهمها المداولون... قام أحدهم ورفع ستائر من الذهب الخالص المَوْشِيّ بحبات اللؤلؤ وفصوص العقيق والزمرد، فرأى فيما يرى النائم (وصوت زوزو نبيل يتسلل إلى

مسامعه تروي حكاية من حكايات آلف ليلة وليلة)، شرفة تطل على بهو ضخم تتوسطه طاولة عملاقة من خشب الزنزلخت، نخرها السوس، مغطاة بفراش مخملي من زهور الأكاسيا، يتمدد فوقها جسد هائل الحجم يغط في نوم مشوش مضطرب...

لاحظ (فيما يظن المتلقي)، ذعر وهياج تتناوبه هموم تتراقص في ثنايا وجه صنع من الخوف العظيم، ثم رأى في مفازات القلق عدد وفير من السلالم المتحركة، والمصاعد الأوتوماتكية، ورافعات منها الثابت والمتحول، جميعها تدور دون توقف حول جسد مسجى لسبينوصور[2]، تسلقه خبراء من علماء وأطباء ومهندسين قدموا من بلاد أجنبية، ورجال دين من شتى الملل والنحل، أرسلتهم مؤسسات دينية معروفة، في مشاركة صوفية يشاع عنها قدرتها على الولوج لما وراء الحاضر والمعلوم، وفنانون عالميون يقبضون رواتب ومخصصات باليورو والروبل واليوان والين، بعد سقوط الدولار في فخ العقوبات، حتي انتهي به الأمر بمعاقبة نفسه، وكان يعمل تحت إشرافهم خبيرات في فنون التجميل، عاكفون على إزالة الأتربة والأوساخ، وإضافة المنظفات والمساحيق الكيميائية التي تساعد على إزالة طبقات البكتيريا الدقيقة، الساكنة ثنايا الجسد، الذي فقد لونه، كالإبط

---

[2]) سبينوصور أيجيبتيكاس Spinosaurus aegyptiacus : ديناصور ضخم من أكلة اللحوم ذو فك قوي وأسنان حادة ضخمة يقتات على الديناصورات والأسماك الكبيرة. يصل طوله إلى 18 متر ويزن 4 أطنان.

والفتحات، بينما خبيرات التجميل تحاولن استعادة رونق الشباب للبشرة، قد لاحظ الدكتور النابغة أن جميعهم عاكفين على عملهم، لا يعوزهم التجهم. وقد أقر فيما بعد إنهم ولا شك يعملون بدأب ونشاط يستحق الإشادة على محو أثار الزمن.

غمغم... كنت أشك في الأمر، قال: إنه مصاب بمرض أنيميا اللغة. فتح قنينته ذات الحروف الطلسمية على مشهد من الجسد المسجى وألقي ما بها إلى فضاء عكر، فتناثرت حروف وأبجديات اختلط حابلها بنابلها... رتل ككاهن يدعو لدين جديد:

"حروف تصنع الكلمات، وكلمات تعرب عن معاني، سوف تفكك اللغة، ويعاد تشكيلها، تختلط الحروف تبزغ كلمات يلبس فيها الشيطان مسوح الملائكة، وتصبغ الملائكة مسوح الشياطين، ويكون اليمين يمينا، واليسار يمينا، والقبح سيدا على عرش الجمال، الجمال ملقي في مكب النفايات، يعلق الحق على المقاصل، ليستوي الموت على عرش الحياة، أنها اللغة المفككة تنطق بها العقول الذكية، والآن أعدوا ابنه الساكن في حضانة الطفولة ليرث العرش، وكل العروش الملكية أو الجمهورية سيان... فضخوا عروقهم بشلالات الدماء.

رَوَّعَهُ الألم الذي يعاني منه السيد الغائب، جعل الدكتور يطرق في سكون فضاء الغيبوبة، ويفتح سرداب العتمة، سار

وسط تراتيل غامضة حتى بلغ الفوهة، هناك توجه لهم بالشكر على ثقتهم الغالية، كي يمنحوه مثل هذه التجربة الروحية الباطنية، والتي أضاءت له الكثير، ونورته بالغامض والعجيب والمحجوب، وأوضح لهم إنه والسيد اجريا اتصالا روحيا بالطبع، وأن السيد يشكرهم على ما بذلوه من جهود من أجل راحته، "لكنه ميت"، وأضاف جمل لغوية تحمل في طياتها أخر الأبحاث الفلسفية التي تتحدث عن موت "المؤلف" لتبقى الروايات رهينة القارئ العارف المتفاعل، يا سادة هذه هي المشكلة باختصار، مات المؤلف ونحن في حاجة الآن لقارئ مستعد للقتل بدوره"...

هكذا شخص الدكتور الأمر... وأضاف بثقة سببت له كثيرا من الحسد والضغائن من أقرانه: "أن معالجة الاضطرابات التي تخص الجماعات الحية هي تخصصه بالذات، الذي حصل عليه من جامعات أجنبية عريقة، مؤكدا إنه في حل عن ذكر أسماءها، لكن المسموح له بالقول إنها متخصصة في علم "اللا موت"... وهو الذي أشير له سلفا، عن استعادة الموتى من قبور الأحياء...

* * * *

أربعون يوما أمضاها دكتور النابغة، مع جثة السيد الكبير في كهف التنسك وحيدا إلا من الظلام العميق، فإذا أطل صباح اليوم الواحد والأربعين خرج عاريا إلا من قماطه،

تتقدمه كرش صغير، فنظر الذين كانوا حيثما كان النبي الجديد، يعلن على الإشهاد الولاء المطلق والعبودية التامة للروح الوليد، مبشرا بدين السادومازوخية، أتباع التسليم الأبدي، وقال أنى يا أبناء قومي أتخلى عن نفسي- والروح التي هي من عند ربي، فأجمعوا أرواحكم في قناني، آتيت بها لكم من بلاد الهند والسند، وهبوها له هبة التي لا راد لها...

قدموا إضحيتاكم مشفوعة بأرواحكم وأجساد أطفالكم... هكذا تعود الحياة إلي السيد الكبير... ثم حمل قنينته صاعدا سلم من أوهام الحداثة، وهام بها حول منبت الحياة، وشرع يصب في فم السيد قطرات من الروح التي هي له، وهو يتلو صلواته مرددا:

- "في البدء كانت الوشاية، حينما وشي آدم لربه عن عريه، فكان عقابه ونسله الموت"... ثم جاءت النبوة فحكم الملك على كل الأطفال بالقتل... السيد الكبير لن يقتل فالقتل خطيئة، هو سيأكلهم لتمتزج الروح بالجسد... لا شيء يضيع هباء... وأضاف بهدوء "مفعولها أكيد"...

تبادلوا نظرات الشك والخوف وقالوا "لسنا في حاجة لنبي أو دين جديد"... قال ما كنت غبيا ولست مسيحا يغفر لمجدلية، ولا مؤمنا بالحمقى أمثال جيفارا وليس لي ابن عم يدعى عليا، إنما أنا حراق مراحل... مذهبي دهاء معاوية وخلاعة أبنه يزيد، وما إنا إلا بولاد لروح العبيد"...

ولـم يكـن للإثابـة أن تتـأخر، فقـد تقـرر أن يقـيم المبشر بـالميلاد الجديـد، مجـاورا لمقامـه في السـدة العليـا أسـفل العـرش الكبـير، لينتقـل مـن منزلـه الـذي كـان يبعـد عـن مـنزل السـيدة الشـابة (دنيـا ذاد) أحيـاء قليلـة، تـراه الآن وهي تصـعد الطريـق كـل يـوم إلى السـدة العليـا قـد تحـول إلى خرائـب تسـكنه القوارض...

منـذ ذاك اليـوم بـزغ للقـاطنين في القريـة شـاحنات تحمـل في ثنايـا الظـلام عشرات الأطفـال والصـبية والصـبايا صـاعدة إلى السـدة العليـا، أصـوات البكـاء تـتلاشي لتحـل أشـباح ضـوئية قادمة من القصر الكبير...

... لقـد هـل هـلال عصر الأنـوار الـذي بشر بـه الـدكتور الـذي كـان مـن المقـدر لـه أن يكـون طـه حسـين يشرق مـن جديد.

* * * *

في أول أيامـه أعلـن أن عصر جديـد مـن المسـاواة والحريـة قـد بـدأ... وأن النـاس أحـرار فيمـا يفعلـون... وأن كـل مـا يطلبـه السـيد مـن رعيتـه هـو البيعـة وشريعـة الـولاء، ومائـة طفـلا وطفلـة عـلى ولائـم العشـاء، فكـذا تسـتب الأمـور، وعنـوان ذلـك ودليلـه أن العلاقـة بـين النـاس والسـيد، هي علاقـة الطالـب بالمريـد، والمجهـول بـالمُعَرفْ، التـابع لشـيخ الطريقـة، وهي في كـل الأحـوال تنـدرج ضـمن المصـنفات الاصـطلاحية الـتي

يضمها قاموس ابن سيدة علاقة العبد بالسيد... وعلى كل، من يبغى حلما أن يسعى إليه سَعّى العبد لمولاه، وأن يقايض عليه بقطعة من روحه، وطفلا من ذريته، ومن شاء الإثابة جميعها فروحه كلها...

كان في هذا تفسيرا لما استيقظت عليه الناس على لافتات انتشرت في أرجاء القرية وقرب حدود المستنقعات كتبت بخط ديواني جميل:

"قايض حلمك بقطعة من روحك للسيد..."

انهالت البرقيات على السدة العليا يعلن الناس في احتفالات باذخة، ابتهاجهم الخال من الغرض للبعث الجديد، بسريان الدماء في عروق السيد، وسعادتهم بعودة الروح للسيد معلنين ولاءهم الذي لا يرد وبيعتهم التي لا تنكس، للقاطن في السدة العليا، صاحب الحق في وهب الحياة وقبضها السيد الكبير.

بعد هذه الدعايات المحكمة التي استقدم لإدارتها شركات عالمية متخصصة، شوهد طابور طويل من القادرين على التفرقة بين الخط الديواني وغيره، يمتد صاعدا قرب السماء، حاملين قدورهم الخاصة بحفظ الأرواح... يجرون ورائهم أضحية صغيرة، تسير على قدمين وقد غُلت أعناقها بالقيود، والضوء القادم من السدة العلوية يشتد شيئا فشيئا وينتشر على الأطلال...

ويـــذكر أن قـــاع القريـــة شـــهد انتشـــار تجـــارة القنـــاني، والأطفـال، بعضـها كـان محكـم الصـنع، وبعضـها كانـت تهـرب منـه الأرواح وتـتلاشى، وتخـتفي لأمـاكن مجهولـة، قيـل إنهـا لعصـابات تعمـل لصـالحها الخـاص، وأحيانـا قيـل متمـردين، ممـا دفـع الجهـات الأمنيـة لشـن حمـلات قاسـية حفاظـا عـلى حقـوق المودعين...

* * * *

في كـل مـرة كانـت تصـعد إلى السـدة العليـا كـان يغمرهـا ابتهـاج شـفيف مطعـم بـالأسى، فقـد تحولـت الحيـاة حـول المقـام الكبـير إلى مهرجـان مـن الأضـواء الفسـفورية، والرقصـات الجماعيـة الـتي كتبهـا وصـممها مبـدعين، أدمجـوا بهـا أسـم المفكـر والمصـلح القـومي العـربي العـولمي الأسـتاذ الـدكتور نابغـة، تقـديرا بمـا تفضـل بـه علـيهم بالمكانـة المقـدرة، الـتي تقـترب أو تبتعـد عـن مركـز السـلطة الثقافيـة، ومـن ثـم السياسـية، والـتي تـترجم بحجـم مـن النفـوذ يقِـيهم مـن الاخـتلاط مـع سـاكني المسـتنقعات، وتخصـيص مقننـات تموينيـة مـن الهـواء النظيـف، آو السـفر إلى منابعهـا في المنتجعات الأوربية للنخبة...

لكـن معـالم الأسى وفقـدان الشـعور بالأمـل شرعـت تغزوهـا تـدريجيا، وهي تـرى الفضـاء المحـيط بقصرـ السـيد الـرئيس يـتلاشى تـدريجا، حـتى يكـاد يخـتفي خلـف القصـور والمـلاهي، الـتي انتشرـت بسرـعة الـبرق، حيثمـا كـان الأسـتاذ الـدكتور يتبـاهى

بها ويتيه بها خيلاء، فبفضل ذكاءه وعلمه الخارق أعاد الموتى من قبورهم، وأشعل عصر الأنوار الاصطناعية في القرية التي سادها الظلام... وهو ما جعل جمهوريات وممالك وأمارات الموتي ترسل الوفود تلو الوفود إلى السدة الكبرى يطلبون مشورته، وان يصبغ عليهم بعلومه التي تعيد الموتى من قبورهم، وتبقي القاطنين في برزخ الموت حياتهم...

كانت ترى المحظوظين يقيمون شعائر المحبة والصلاة، ويهللون ويكبرون باسمه... فتعود مضمخة بالحزن والحيرة، تجلس بجوار زوجها العليل تحاول التماسك، تحصى ما تبقى من روحها، فإذا وجدت بقية هتفت بابتسامة الصبر الجميل:

"خير... لسه فيه خير"...

وتبدأ في تنظيفه، فتزيل عنه رائحة البول وتمسح عنه فضلاته بصبر ورحابة صدر، وهى تهمس لنفسها ... دنيا عجيبة يا دنيا زاد... ثم تخرج إلى شرفة صغيرة تستعيد ملابسه النظيفة التي غسلتها بالأمس وتلبسها بصبر على رجل لا يحرك من جسده سوى مقلتي عينيه، وهى تحكى له كيف أن حالهما أطيب من جيرانهما، الذين زوجوا ابنتهم من قارض ثرى منذ شهرين... بالأمس وصل طرد من نسيبهم الساكن في قاع المستنقعات يحمل داخله بقايا سواعد وسيقان ابنتهم، وخطاب يطلب منهم أرسال اختها الصغيرة على وجه الاستعجال... حكت له أن أقاربها الذين هاجروا

منذ عامين أرسلوا خطاب يخبرونها إن هناك أخبار تفيد بأنهم على وشك زراعة الأعصاب عن بعد، وأنها تنوى أن ترسل لهم خطاب تسأل فيه عن تكاليف عملية خطرة ومعقدة كهذه، تقول بأريحية تميزت بها:

- وليه لا يا أخويا، يفرجها ربك...

... الآن تشعر بالإنهاك، تمددت على الأريكة بعناء جراء يوم طويل... قبل أن تغفو قالت تحدثه أو تحدث نفسها ... إن أصدقائه الذين وشي بهم منذ سنوات يرسلون له التحية مع وعد بمساعدتها قريبا... وعقبت دون أن تنظر نحوه لتتأكد ما إذا كان يسمعها أم لا... "ما تتعجبش، غالبية رفاق التمرد إما في السلطة أو متعاونين معها، قليلين من حافظ على شرفه... والبركة فيك... مفيش حد غضبان من حد دلوقت، الكل أصحاب، الكل واخدين مناصب عالية... الكل شايف حاله... معرفش مال حظنا إحنا اللي هباب... أشرح لي ما أنت طول عمرك علامة وفاهم الْقَاصِي وَالدَّانِي"...

رفعت عيناها نحوه ولدهشتها كان بؤبؤي عينيه يدوران بحديث طويل ما كان ليستطيع التعبير عنه، وما كانت لتفهمه، وما كانت لتهتم، فقد مضى وقت طويل عندما كانت تبذل جهودا صبورة تحاول فيها أن تفهم ما يقول، أو تفهم إيحاءاته وإشارات عينيه المذعورتين... المرة الأخيرة التي يئست بعدها وتوقفت نهائيا، كانت تلك الليلة التي تيقنت فيها أن كل محاولاتها لإيصاله لإثارة حسية قد باءت

بالفشل، بعد أن تقلبت عليه بعريها يمنة ويسرى، وأدارته بدأب في جميع الأنحاء، تدعك جسده الساكن في الموت بعناء ومشقة... ثم حدث أن أفاقت على نظرة بغض شديد، حملت لها اتهام قاسيا بالجشع الجنسي، انهدت في مكانها والدموع تترقرق في عينيها وقد حل بها اليأس أخيرا... هزت رأسها وهي تهمس له "معاك حق... فاكر اللي قلته عني؟"، ذكرته بما قاله عنها لصديقاتها اللائي كن يتحلقن عشقا حوله، أن لديها شبقا يشبه عبودية بائعات الهوى في بيوت المتعة التايلاندية...

لا تحب أن تتذكر تلك الأيام فلو فعلت لكرهته، لكنها لن تفعل... فقد ظن أن دأبها التعيس ناجم عن جوعها المعلوم سببه، وحتى ولو كان عجزه أو وفاءها له، يالحماقة الرجال... ربما ما كان لها أن تكون مُبتذِلة لهذه الدرجة...

قامت تسقيه شراب العرقسوس الذي يحبه، تحكي له بأسى كيف أن قطعة الأرض الرحبة التي حكت له عنها في المرة الفائتة جري تقسيمها بين منتجع سياحي مثل ألف ليلة وليلة، وجامعة اقليمية لتخريج القادة من أجناس السادومازوخيين... قالت أنه يعرف مدير الاكاديمية، وضحكت دون مشاعر بغض ولا حسد... في كل مرة كانت تضع نصب عينيها أن تحصل على قطعة محددة من القطع المميزة الباقية، وتتمنى لو تستطع مقايضة روحها، ولو لمرة واحدة دون جدوى، تعود لتراها قد استوطنها شخص ما، ولا

يبـق لهـا سـوى تلـك القنـاة العطِنـة الـتي ترتـوى منهـا وزوجهـا الممـدد في الفـراش، فتسـتعين عـلى الأسى بـأن ترتـوى بحبـوب مخـدرة تسـكن عقلهـا، وتغـط في النـوم لتسـتيقظ في اليـوم التـالي، مسـتعدة لرحلـة جديـد، بحثـا عـن مكـان مـا في السـدة العليا بجوار السيد الكبير...

هـذه الليلـة تمـددت عـلى فـراش العتمـة، يسـحق صـدرها قـوة غامضـة أقـوى مـن المـوت، تسـتيقظ في الهزيـع الأخـير مـن الليـل تلهـث مفزوعـة... أضـاءت المصـباح الشـحيح بضـوئه، كـان لا يـزال مفتـوح العينـين يحـدق في الفـراغ... قالـت وهى تـذكر بـأسى مـا شـاهدته برعـب هـذا الصـباح، وهى تـوزع عـلى جيرانهـا بعضـا مـن العصـيدة الـتي صـنعتها مـن دقيـق بـوص المسـتنقعات، وحنطـة محـلاة بزبـدة العناكـب البنيـة المهربـة، رخيصـة السـعر والعسـل الأسـود: إن أفـواه الجـيران نبتـت فيهـا كلابتـان صـغيرتان، وأن قـرون استشـعار حشرـات المجـاري ظهـرت اليـوم مـن خـلال نتـوءات في جبهـة ابنـة جـارهم الصـغيرة الـذي تـرك عائلتـه، وهـاجر إلى بـلاد بعيـدة، تنهـدت كيـف تـتمكن مـن الهـرب مـن المصـير الـتعس الـذي يحيـق بالقريـة... عـادت تغفـو تحـت أمـواج الهمـوم تلـوم نفسـها الـتي لا تـدرى مـا الذي لم تفعله من أجل اللقاء برجال السيد الكبير.

* * * *

في الهزيـع الأخـير مـن ليـل الكآبـة زارتهـا روح أخوهـا الأكـبر الـذي انتحـر في سـن مبكـرة... تـذكرت ملامحـه بصـورة غائمـة

وهـو يفعـل المسـتحيل كي يلتحـق بسـلاح خفـر السـواحل، والموكـل بـه حمايـة أطـراف القريـة مـن غـزو سـكان المسـتنقعات، كانـت الأسرة جميعهـا تشـجعه وهـو يعـبر بنجـاح امتحانـات القبـول الشـاقة للمؤسسـة الـتي تخـتص علومهـا بـالحروب ضـد الكائنـات الـتي صـعدت مـن التـاريخ الطبـيعي القـديم والـتي اسـتطوطنت أعمـاق المسـتنقعات، ليعـود بعـد كـل مـرة منـتفخ الأوداج سـعيد، معلنـا مـن صـميم قلبـه، عزمـه الـذي لا يلـين عـلى نيتـه في شـن حـرب وقائيـة ضـد كائنـات المسـتنقعات... لكـن صـاعقة أصـابته عنـدما وأجهـوه في الامتحـان الأخـير المـدعو بكشـف الهيئـة بالمهانـة المسـماة "راسب" والسبب أنه ينتمي لسكان الأطراف الفقيرة"...

تـذكر أن أباهـا طـرده مـن كـوخهم عـن قصـد، وأنـه تحـول إلى سـكنى المعابـد المنتشرة في الجـزر، يجـول دروبهـا المتسـخة بالرشـح والرطوبـة في أسـمال باليـة، معلنـا عـن نيتـه في التصـوف عـن هـذه الـدنيا الكريهـة، مستعيضـا عـن الوجـود الملعـون والوطن الخائن، بالسكون في الحضرة الإلهية...

شـهدت كيـف حـاصرت كتائـب الأمـن حـيهم الفقـير، تقلـب الأحجـار والأرائـك والمـراحيض العامـة، بحثـا عـن أخوهـا التائـه عـن الـدنيا، وتحيـل الأمكنـة خـراب وشـظايا مبتـورة ونغادرهـا حرائـق مشـتعلة... صـبي يشـوبه الشـيب معصـوب العينـين غـادر حلمهـا المخيـف مقيـدا بـالأغلال... لتبـق طفلـة صـغيرة

تعيش ساحة من الدمار وصقيع غياب غامض لكائن كان يسكن الروح...

تتذكر وهي بعد طفلة لا تدرك الأشياء، تنتظر أخاها الأكبر الذي طالما حلمت به في بذلة الضباط سامق شامخ، كيف عاد في هزيع الليل من وراء الشمس مدمى بجراحه النفسية والعقلية وجسده المنتهك بالاغتصاب الذي مارسته قوة متعددة الأعراق، بعد أن رفض أن يوقع على وثيقة بالتعاون...

الآن يبزغ حلمها بالوقائع المنسية في اللا شعور... جثة مدلاة من سقف عليتهم الضامرة بالكآبة والضياع، وروح تصرخ في الفضاء الكائن من جراء التعذيب والانتهاك تطلب العدالة والمساواة...

ها هو الحلم يرحل ليبزغ شبحا تتعرف عليه بصعوبة؛ إنه الشيطان... الشيطان أين أنت كي أعقد معك صفقة العمر؟

ذاك الصباح استيقظت مفعمة بالنشاط، لقد جاءتها العلامة التي انظرها طويلا من السماء أو الجحيم... علامة جاءت والسلام، وينبغي ألا تفوت الأمر. أخرجت أوراقه السرية هذه المرة، وجلست تكتب عرائضها النهائية، ثم توجهت إلى حيث تتقاطع مفارق البر والبحر، وتخوم الوديان والصحراء، والطرق الرئيسية الصاعدة إلى

الاتجاهات العليا، للسماء والجحيم، وانتظرت علها تجد من يجيب، كان الفراغ والصمت يتلصصون عليها...

... الجحيم يقع في قرار الأراضي السفلى، والجنة في السماوات العلا... لا الجحيم في الأعلى... والجنة هناك بين القبور والموتى... وصرخت لا أريد أن سوي أن أظل إنسانة من جنس البشر، حتى ولو تطلب ذلك التعاون مع الشيطان... لا أريد أن أصبح من جنس المفصليات أو الزواحف، أو البرمائيات التعسة، وتبا للقارضين، وألقت إلى الفضاء آلاف المنشورات، موجهة إلى جميع الجهات المعنية الداخلية والخارجية، إلى كل وكالات المخابرات الوطنية والعالمية، ووكالات الآمن السرية اليهودية المتشددة، أوراق بيضاء كتب عليها بخليط من ماء البصل والكمون والكزبرة والحنطل السري.

أيها الوطن الخائن...

أيها الرجال والسيدات السادمازوخيون...

أرجوكم... أتوسل إلى ينبوع الرحمة الكامن في قلوبكم الصفيح...

لا أريد مصير صرصار كافكا ولا مسخه...

وأنا أعلن عن توقيع على بياض، بالتعاون مع من يشاء على ما يشاء... ثم سقطت منهكة متعبة تشعر برغبة عارمة في الموت...

* * * *

التحسن الطفيف الذي بدأ يغزوا حياتها تدريجيا لم تلاحظه، كان يأتيها وئيدا لكن ببطء... لم تكن تعلم إذا ما كان شعار الأجهزة السرية الدولية الإتقان، أو أن البيروقراطية تتحكم بها... وأن عمليات استعلام دقيقة تحتاج وقت دقيق، فالأخطاء الناجمة عن السهو والخطأ لا يحمد عواقبها...

لم تكن تدري أن العيون التي تسكن العالم السري تضعها على المحك، وأن كوات غير مدركة أخذت تفتح لها مناطق سرية من عالم البهجة المخصص فقط للضالعين في المستقبل... ولأسباب لا تتعلق بما تعرفه ولا تعرفه، تركت لغريزتها المقود... طريق طويل من طيات تلتف وراء طيات، أخذها دون إدراك منها نحو الأعلى، بطيئا لكن بتؤدة، وفي كل طية تتوقف فيها كان الموت يكشف عن وجهه الكالح... ما الذي تريده أكثر من ذلك إذا كان للموت وجود عياني في الحياة... هذه الظهيرة قالت بسعادة بعد أن غسلته بحامض مستورد خصيصا للمقيمين على البرزخ الواقع بين الحياة والموت:

- "مـا بالنـا بقضـيتي المـوت والحيـاة، ألـم يسـقط الوجـود مـن عرشـه، ينـبغي لنـا أن نعلـن علامـات الفـرح والحبـور، أتـرى... لم تكن لتصدقني...

قبلته وهي تصرخ وترقص من الفرح، هتفت:

- "يـا عزيـزي... اليـوم وصـلنا بريـد، لقـد اُسـتَدل عـلى العنوان"

هـذا الصـباح تصرـفت وكأنهـا تولـد مـن جديـد... جـاء البريـد... لهـذا وضـعت بحـرص شـديد شـهادة عجـزه الكـلى، والـتي تؤكـد وحـدتها، وكونهـا امـرأة صـالحة لبـدايات عشـق جديـدة، بعـد أن أصـبحت زوجـة لرجـل مـن بقايـا حركـات المقاومـة السرـية، وعصـابات الشـوارع الجانحـة القديمـة، رجـل قضي ـ خمـس سـنوات سـامها العـايق الغنـدور كـل صـنوف الامتهـان والاحتقـار... لمحهـا تخـرج صـندوق عطارتهـا الـذي أوقعـه في حبائلهـا، وبعـد أن جملـت وجههـا، مسـتخدمة مـن عطورهـا عطـر البنفسـج الـذي يمسـك بتلابيـب الليـل مـن خاصرتـه، ويمضي ـ بـه إلى فـراش النسـاء الوحيـدات... وقفـت في الفسـحة الـتي تسـبق البـاب الخـارجي أمـام مرآتهـا تسـألها؛ إذا كـان يوجد في المدينة من هي أجمل منها؟

أجابتهـا المـرآة "كثـيرات هـن الجمـيلات، فضـحكت سـعيدة وبثقـة وهمسـت وهي تمـر بباطن أصـبعها عـلى سـطح المـرآة الـتي انكمشـت عـلى نفسـها مـذعورة: "يـا مـرآتي العزيـزة،

ولكـن قلـيلات هـن الـلائي يمـتلكن جـاذبيتي... عـزيمتي الـتي لا تمحق".

* * * *

هــذه المــرة ســوف تتوجــه للرجــال الغامضــين الــذين سـيدلونها عـلى طريـق الخـلاص... لـن تكـتفي بمـا كانـت تفعلـه في المـرات السـابقة حـين كانـت تصـعد حاملـة قطعـة مـن روحهـا ملفوفــة بعنايــة في صــندوق فضي- مزخــرف برســوم بوذيــة، اشـترته مـن سـوق المنتجـات الصـينية الـتي غـزت القريـة منـذ عقـود... اليـوم لفـرط طيبتهـا سـوف تـترك أجـزاء مـن جسـدها الصبي، وهي ترجو أن تكون تقدمة وحياة للسيد الكبير...

يحـيط الضـباب بمـدخل عـالمهم العلـوي، الواقـع عـلى قمـم شـاهقة مـن عـالم افـتراضي، وبوابـة حجريـة قديمـة، بيـت لجحـا ومتاهــة مــن ألــف ليلــة وليلــة، وأمكنــة هنــا وأخــري هنــاك، مربعـات شـائهه، ومثلثـات عـلى الأجنحـة، معـادلات تحلـق في فضاء ومواقد، لسحرة تفوح بأبخرة ملونة...

في اليـوم الأول تركـت ثغرهـا الـدافئ عـلى حضـانة المبسـترين والخاصـة بالوريـث، في اليـوم التـالي وجنتـين بطعـم العنـبر، في الثالـث وضـعت أنامـل مـن مرمـر، في الرابـع حرقـت نهـدين مـن ســكر، في الخــامس طحنــت كفلــين لمهــرة الشــوكولاة، في السـادس فـاح عطـر الياسـمين، في السـابع ضـوى كأسـها الأمهـر، تمتنــع عــن البكــاء لــدائرة غامضــة لا تــدرك أيــن هي... دائــرة تكشـف عـن نفسـها لتجـدهم جميعـا بانتظارهـا، كهـول تاهـت

أطـرافهم، يـديرون دفـة الأمـور، وجـنرالات يعملـون في معامـل سريـــة، وعمـــلاء مـــدنيين في عوينـــات ســـوداء، ومثقفـــون يتحـــدثون بلكنـــات غريبـــة، وبلطجيـــة صـــغار يقومـــون عـــلى خدمـــة كـــلاب شرســـة لبلطجيـــة كبـــار، وفي المنتصـــف نُصـــب حجرية، وهيكل عظمى يرقص التانجو.....

العـالم يكشـف عـن جبروتـه والقـوة المحركـة لـه في حياتهـا التعيسـة، تقـدموا نحوهـا في صـمت، وعنـدما اقتربـوا شرعـوا في ملامسـة عظامهـا... متعـة لا تعلوهـا متعـة... ترقبـوا في البدايـة أن تغمـض عينيهـا، لكنهـا شرعـت في الابتسـام والضـحك كفتـاة متعـة مـن جنـوب شرق أسـيا، مكرسـة للطاعـة العميـاء، (تمامـا كمـا قـدر مصـيرها الشـاب العـايق الـذي ربطـت مصـيرها بمصـيره)، تبـادلوا معهـا ألعـاب الملامسـة الأكـثر فحشـا... كانـت تعلـــم الآن إنهـــا في مســـتعمرة للجـــذام... تهـــاوت مشـــبعة بالبهجة... لقد تحررت...

* * * *

هـذا الصـباح كـان الكسـل يغمرهـا، لكنهـا قامـت متغلبـة عليـه، اليـوم ستصـعد ومعهـا وثيقـة حصـولها عـلى المكان الـذي حلمـت بـه طـويلا... صـحيح لـيس بجـوار السـدة العليـا ولا حـتى عـلى أطرافهـا، فتلـك الأمـاكن تسـتلزم مواهـب غـير تلـك الـتي تجيـدها... لكنـه مـنزل كبـير الأرجـاء، عـلى أي حـال يقـع عـلى

أسـوار مسـتعمرة الجـزام في المنطقـة الفاصـلة بـين الأعـال والأسافل...

واليـوم أيضـا كانـت عـلى موعـد بلقـاء هـام، مـع رئيسـة مكتـب إحـدى المحطـات الفضـائية، المندوبـة المعتمـدة لعـدد مـن وكـالات الأنبـاء، والمنوطـة بالاعتمـاد النهـائي لـدخول المستعمرة.

في أكـثر ملابسـها إثـارة وعـلى اللـوبي المـؤدى إلى البـاب الخـارجي وقفـت دنيـا ذاد أمـام مرآتهـا الجديـدة تسـألها وهي تـراه ممـدد عـلى فراشـه الطـبي، يحـدق فيهـا عـبر انعكاسـات سلسـة طويلـة مـن المرايـا وضـعتها في الردهـات والطرقـات السـفلية والعلوية كي تتابع أحواله وعيناه تحملان الخوف والضآلة:

- مرايتي يا مرايتي... لو تعرفي حكايتي... أنا دنيا زاد...

وقبـل أن تتجـرأ وتجيبهـا، مـرت بأصـبعها هـذه المـرة وهي تـراه، ابتسـمت بغـرور والمـرآة تتلـوى بـين أصـابعها القاسـية... لوحـت نحـوه مودعـة وهي تغلـق خلفهـا البـاب حـتى لا تتسـلل القـوارض الضـالة وتهاجمـه... حالمـا تغلـق البـاب الخـارجي انبعـث مـن جهـاز الاسـتماع الجديـد مـا أخبرتـه أنـه نشـيد الصباح، أو حيث يعلو صوت فيروز تغني...

أنا دنيا زاد القصيدة
أنا كل يوم جديدة أغادر عند الصباح
وكان شهريار يبدد النساء يبدد الأشعار والناس والحكايا
قلت للحكاية انا حرر السجينات انهض يا سجينات

أنا دنيـــــا ذااااااااااااااااااااا

هـذا نشـيد حفلاتهـا الـتي دعـت لهـا فتيات صـغيرات ونسـاء وحيـدات، تصـنع حيـاة مـن البهجــة حــتى إذا نزلـوا في صــميم الليـل مـن السـدة العليـا قـدمت لهـم أرواحهـن بانتظـار صـعود أخر...

*   *   *   *

لـم يسـتمر زمـن الهنـاءة طـويلا فقـد ارتكـس زوجهـا وعـاد كمـا كـان قعيـد الفـراش، في اليـوم الـذي سـمع فيـه صـوت نفـير المـوت قادمـا مـن السـدة العليـا يعلـن مـوت السـيد الكبـير، وتنصـيب أبنـه النـائم في حضـانة المبتسـرين عـلى عـرش الـبلاد، أمـر لا يمكـن تصـديقه، وقـف السـيد الصـغير الـدكتور, يعلـن في محفـل العـزاء مـوت مـن لا يمـوت، وتلـك معجـزة مـن معجـزات الخليقة، فمن سيحتل موقع الألوهية؟

قـال لقـد بشرنا بمـوت الـنص، ولمـا مـات الـنص قضي- نحـب القارئ...

*   *   *   *

فهــل حــان الوقــت كي تــتخلص مــن جثتــه الســاكنة بــين المــوت والحيــاة لا... ولــم... أنــه نشــيدها ونشــيد عــذابها وخلاصـهـا معـا، ولكـن صـار يمكنهـا استحضـار الرجـال، لـيس ثمـة حفـلات لنسـاء بـلا رجـال... فقـط صـعدت بأحـدهم إلى غرفتـه، كـان الرجـل يطاردهـا وهـو في حالـة سـكر... وعنـدما

التقت عيناهما قالت ببساطة إنها أتت به أمامه كي تستنجد به... كي تعلن إنه زوجة لرجل، وليست مؤهلة لعلاقات غرامية من نوع مضر... كان الحوار طويل... عيونه همست لها بضراعة... لا تريني إياه... وهمست في اليوم التالي بولع لا أريد أن أراه... لا أريد أن أراك أنت أيضا... وقال... بربك ارحميني... بربك تعبت... وأنا ارتكبت جرائم كثيرة لكنى ما عدت قادر على التحمل... وعندما سمعها تقول لجُزَامي كان يقبل ثغرها بضراوة ... أنى أحب زوجى... أقول هذا حتى يسمعني كلاكما... وما أفعله معك أمامه لا يعنى سوى أنى أحبه... فالخيانة شر لا أفعله... همس ... لو تقتليني... رصاصة الرحمة هي كفارة الخيول التي عجزت عن نزول ساحات السباق... لم تكن تسمعه... فقط عندما قامت بعينين غائمتين طلبت من الرجل الجُزَامى أن يمد يده ليصافحه معلنة لكل منهما: زوجي الطيب... صديقي الطيب الجديد... أهلا بكما...

دارت مقلتاه بالرعب... كان يشبه الذين قاموا بتعذيبه، وبعد اعترافات كاملة أمسك أحدهم ببرود بمشرط حاد وقطع حبله الشوكي...

لم تكن تعلم بالطبع فطيبتها ليست محل شك... قالت للمسجى على فراش العجز الأبدي وهى تبتسم بغنج: أنظر كم هو طيب غلبان، لا يؤذى نملة، وخرجت تدعو الفتيات، فجئن ينظرنه بشفقة، والخوف من الرجل الذي بدا كخنزير

ينظـر نحـوهن بابتسـامة بلهـاء... طلبـت مـنهن أن يشرعن في الـرقص والغنـاء ترفيـه عـن مريضـها كما كانـت تفعـل لـه في الأيـام الخـوالي يـوم كـان صـقر الحلقـة السرية، ففعلـن إرضـاء لهـا عـلى وعـد بالصـعود، خطـاب لرجـل مهـم قريـب مـن الحلقـة الصـغيرة للسدة العليا، رقم تليفون، ووعد بالانتظار.

... مـتى بـدأ الخنزيـر يطـاردهن... لقـد بـدا الأمـر كلعبـة غميضـة، وكـن يسـارعن بـالهرب ويبتعـدن بـالفزع مرتعـدات مـن القـرف الـذي يفـوح بـه ثغـرين أكلهمـا الجـزام، وهي تضـحك تنظـرهن وتنظـر المسـجى عـلى فراشـه وتبتسـم، وفي الوقـت المناسـب وقبـل أن يهـددها كانـت تخفـف مـن روعهـن "لـم الخـوف؟ أنـه أمـر بسـيط وسـهل، أنظـرن هـا أنـا أقبلـه هكـذا" وتتقـدم منـه لتضـع شـفتين ثقيلتـين حـارتين عـلى فـم أزال الجـذام أطرافهـا وكشـف عـن أسـنان سـوداء متآكلـة... كانـت تحـثهن عـلى تقبيلـه، مقدمـة دروس عمليـة في استرضـاء الرجـال النافـذين، حيـث كـان يحلـو للعجـائز أن يضـموا جسـدها ويضـغطوا بقـوة ليسـتلبوا قليـل مـن متعـة الاعـتراف بتسـليم روحها لهم...

في الليـل بعـدما يرحلـون كانـت تجالسـه، تحدثـه عـن نجاحـات النهـار، وكيـف خصصـوا لهـا قطعـة أرض عـلى قارعـة الطريـق الصـاعد للسـدة، مبينـة كيـف أن هـذا يقربهمـا خطـوة مـن الطريـق، وتحدثـه عـن عـروض جـاءت بالعمـل في البـدروم الكـائن بـالقرب مـن مؤسسـة الزكـاة العامـة، لكنهـا رفضـت

بانتظار عمل يقربها أكثر، وكانت تنتهي بالقول: "إن صديقاتها يشيعون عنها أنها ضاجعت الأستاذ الدكتور النابغة، وهي لن تخيب أملهم بالنفي، فهذا إن لم يكن حدث بالفعل، فسوف يحدث يوما... وهي لن تهتم، من رآها لم تضاجعه ليفصح... وهي تكرر أحاديثها عن مضاجعة الدكتور بحماسة غريبة... وتردد... تكفيني من هستيريا التمني بالمضاجعة... أن الوهم يحول الأحلام حقيقة...

في كل ليلة ثمة زائر على قدر متزايد من الأهمية كان ينزل من المستعمرة ليطرق بابها ليلا، وكانت دائما مستعدة بوليمة من الطعام والشراب... كانت تستقبلهم بسعادة مفرطة، فهي إذ لم تكن قد أقامت بعد في السدة العليا، بجوار ضريح السيد الكبير، وحضانة الأطفال المُبتسِرين للسيد الصغير، فهي تعرف الآن رجاله الذين سيأخذونها إليه يوما، وعندما استيقظت ذات يوما على فراشه نظيفا خاليا من جسده، وكأنه ارتفع لسماء مجهولة، لم تشعر بشيء ما... لا الم ... لا فرح... لا مقت ولا كراهية... وبعد أيام قليلة بدا وكأنه ينتمي لحلم موغل في اللاشعور... فبكت حرقة حقيقة أدهشت جميع عشاقها: "لقد رحل اللا منتمي، ليت "كولن ويلسون" يعلم بأن ما ظنه أوهام، في الغرب، تحول إلى حقائق في شرق المتوسط.

* * * *

هـذا صـباح بـارد، حاولـت السـيدة دينـا زاد بصـعوبة الانسـحاب مـن غفوتاهـا الطويلـة، لكنهـا تراجعـت مفضـلة البقـاء داخـل حلمهـا الوحيـد الـتى عكفـت عـلى تكـراره، تنفسـت بصـعوبة، تحـاول أن تتـذكر مـا كانـت قـد عزمـت أن تفعلـه في حلمهـا منـذ زمـن بعيـد، لكنهـا لـم تسـتطع أن تسـتعيد مـن ذاكرتهـا المشوشـة سـوى رغبـة كائنـة في عـوالم هلاميـة نائيـة... عـاودت مثـل مـدمن يقتـات وعيـه المكـان الـذي قـدمت منـه، والمكان الـذي أصـبحت فيـه... أيـن قصرهـا الصـغير الكائن قـرب أسـوار السـدة العليـا، الـذي انتقلـت إليـه ومعهـا زوجهـا الـذي أحبتـه، أيـن الجثـة الـتي عاشرتهـا سـنوات، مـتى رحلـت وأيـن ذهبـت؟ عاودهـا مـن أضـغاث ضـبابية عـالم فقدتـه مـع تـوالى الشـهور والسـنوات دون أن يـروح مـن ذاكرتهـا... فكـرت وهي لا تـزال تغـط في غيبوبتهـا أن طريقهـا إلى عـالم الصـحو يبـدأ بسـلوك الخطـة الـتي طالمـا نجحـت معهـا، في محاولتهـا لاسـتعادة الحلـم الـذي لـم تعـد تعـرف عـلى وجـه اليقـين ممـا تتشكل ...

سـوف تشرـع منـذ البدايـة باسـتخدام مـا تـبقى لـديها عـن مـا تعرفـه عـن نفسـها جيـدا، وخاصـة أن مـا يحـيي أمالهـا وآمـال القطيـع ظهـور شـائعات تحـوم مـن فضـاء السـدة العليـا عـن اكتشـاف بيـوض لديناصـورات حقيقيـة أسـفل الجثـث الكثـيرة

والمتعددة للسيد الرئيس والتي تعفنت، والعمل جار على قدم وساق كي يخترعون حضانات للمبتسرين من نوع جديد ملائم للطبيعة البيولوجية للأجناس الجديدة، كي يجهزونهم للخلافة كورثة على العرش، وقد أعلن الدكتور العلامة والحبر الفهامة، الذي كان الخليفة المحتمل لطه حسين، أن هذا الأمر ليس جديد على قريتنا، التي حكمت لقرون بالعبيد والمجلوبين من شرق العالم وغربه، وإنه هذا يدعم مفهوم الهوية في مواجهة عصر العولمة.

همست تذكر نفسها بكينونتها... أنا من نوع ذو عزم حديدي لا يكل عن السير في نفس الطريق الذي تعودت أن أسلكه... أنا كائن يقتات بقايا ضباب أحلام تبقت من أزمنة بعيدة... أنا امرأة لها حلم طالما روادها تحقيقه...

هنا في المكان الذي تعودت أن أسلك منه طريقي إلى الخارج، من فراشي الكائن وسط الكوابيس والأحلام تكون دائما نقطة البداية... هنا أقف وبعدها سوف أعرف الخطوة التالية...

... أن تستيقظ باكرا... أن تعرف الخطوة التالية، ارتعدت... الخطوة التالية أن تزيح من جوارها القوارض التي أصبحت تشاركها فراشها... منامتها الحريرية... أن تعكف على تنظيف الحشرات من ثنايا جسدها... أن تتجه للصنبور الذي توقف عن جريان المياه به...

أن تنظف منزلها من السحالي والهوام وتلال الحشرات التي تتجمع بأكوام غفيرة في الأركان وزوايا الأسقف وخلف الأحواض والمراحيض...

أن تلقى التحية على جماعة الزواحف الذين يشاركونها الغرفة التالية لغرفتها... أن تدخل الحمام بصعوبة كي تخطف من بين الأجساد الخضراء رشفة مياه آسنة... أن ترتدى أفضل ما عندها، خاصة الفستان التي استطاعت أن تجعل من رقعته الرئيسة لوحة ألوان ذات سمة محببة...

أن تحمل قنينة فارغة عليها الصدأ وتغلقها جيدا على الفراغ فلم يعد لديها ما تملأه به... أن تقف أمام مرآتها وتسألها إذا كان هناك بمستعمرة الجُذَام (التي اتسعت لتضم كافة تخوم قريتها المحببة، فضلا عن القري المجاورة)، من هي أكثر منها جمالا... ستجيب بالإيجاب، وسوف تفعل شيئا ما لم تعد تذكره؛ لسانها أو قدمها... شيئا ما يجعل المرآة مذعورة...

ثم ماذا كانت تفعل بعد ذلك؟ ... بعد أن تقف أمام المرآة تغادرها لتشرب... تأكل ... لا ... الباب... الباب... تغلقه... لا... تخرج... لا تخرج... نعم تخرج ومعها القنينة...

تنزل المستنقعات لتحضر قدرا من الماء لتشربه... لكن مياه المستنقع ليست للشرب...

الظلام والسكون والصمت يسكنون المستعمرة... هل هو الموت... كيف والأشباح تتحرك في الأرجاء... أشباح تسير في معاطف سوداء تطل منها عيون غابت عنها الروح... باعت المدينة روحها يا دنيا...

... أتوق لخالد لو كان معي الآن... اتوق له وهو يقدم قطع اللبان المحفزة لنشاط الليبدو، واحدة لي، وأخري مهربة لابنته التي لم تتجاوز العاشرة... كان بين يديك وأترعته من كأس شربتها من بين يديه... عذبك كما يعذب سلطان حريمه، وعذبته كما يعذب الشيطان عبيده، والآن تتوق للحظة من لحظات وجوده... هؤلاء النساء وأفكارهن الباطلة... ليتبنى رجل... لماذا الشمس لم تشرق بعد... مضت شهور طويلة ولم تشرق الشمس... هل هو الليل... لكن الظلام يخيم على الأرجاء... كافة الأرجاء... ولم تعد تبزغ في السماء نجوم... أما السدة العليا... تسودها العتمة والصمت الرهيب... أين الرجال الجُذامْ... أين الدكتور النابغة خليفة طه حسين المنتظر... الخواء يسكن جوف الرجال... الخواء... الخواء... وحده الخواء يحيا... يعشعش في أرجاء المستعمرة مثل طاعون قديم... الخواء يسكنني مثل قنفذ سكن جحره...

لم أعد أتذمر... لماذا كان على أن أخرج؟ لم أعد أتذكر... سأعود لفراشي وأنام بانتظار حلم يأتي لنا به نبي ما... حتى ولو كان مزيفا... حتى ولو كان الكذاب... فالأحلام تبعث

أضـواء لاس فيجـاس في العتمـة... ولحـين مـا أتـذكر مـا يتعـين على فعله سأعود لفراشي وأنام ثانية لأنتظر الأحلام....

الأحـلام الـتي باعهـا لنـا شـخص مـا... شـخص عبقـري... سـأعود لأبحـث عنـه في الأحـلام وعنـدما أجـده سأسـأله... عـن ماذا... ما عدت أتذكر..

التعاسـة والقنـوط، صـارا حليـب دمي... مـاذا يفيـد الأمـر إذن...

... دنيـا زاد... أيـن أنـا... أيـن أنـت يـا شـهر ذاد... ألسـنا نقـيم سـويا داخـل حلـمي، رأسـان يتجـادلان بعـد أن جـز عنقيهمـا السياف...

* * * *

الفهرس

الرجال الطبيعيون	**3**
عزيزي تيمور	**15**
امرأة من مخمل	**35**
الأميرة الدينارية	**41**
مستعمرة الجُذَام	**77**

صرت أعلم أن الرجال الطبيعيين لا يسكنون القاع وإنما مكانهم دوما كان هناك على السطح؛ حيث يغمرهم ضوء الشمس، ويتنفسون الهواء النقي، وكنت أظن أن هذا سيصير يوما ما مكانا لي ولأطفالنا وللجموع، إذ أني كنت أظن نفسي الطبيعي بلا منازع، لكن الأيام والسنوات ترى ولا نواجه سوى المزيد من الشقاء، مزيد من التعب والتعاسة، حتى صرت أبغي الموت وأتمناه...

لعنة الله على أولئك الذين ملأوا عقولنا بالآلهة الأبطال، وصراع الطبقات، والأخلاق المستقيمة، وتلك الأساطير المسماة بالوطن والشعب والطبقات الكادحة... الآن يتخبط الجميع هربًا من ذاك الانحدار الدامي، وطلبًا للصعود... الآن لا ألتقي سوى بالنوع الجديد من الرجال الصاعدين، ونحن لا نزال نتمسك بما يثقلنا عن الصعود لضوء شمس جديدة... إذ قيل لنا إن الشمس التي أمدتنا بالضوء لم تكن سوى شمس كاذبة..

«رجال طبيعيون»

فتحي إمباي هو أديب وكاتب مصري حاصل على بكالوريوس الهندسة المدنية، حلصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٩٥ عن روايته "مراعي القتل"، وجائزة التميز في القصة والرواية عن أتحاد الكتاب المصري ٢٠١٩، وتمنح للرواد من ذوي الأسماء البارزة والمؤثرين على الأجيال اللاحقة. وله أيضا العديد من الأعمال الروائية والسياسية، من أشهر أعماله: نهر السماء، مراعي القتل، عتبات الجنة، شرف الله، العرس، والعلم.

تصميم الغلاف: حسن جمال
ISBN 978-977-700-233-2
9 789777 002332